سِلْسِلَةُ رَسَائِلِ راحَةِ الأَرْوَاحِ

المجموعة الأولى [1 - 5]

الرسالة الثانية

التُّحْفَــةُ الْبَهِيَّــةُ

فــي مَعْرِفَــةِ النَّفْــسِ البَشَرِيّــةِ

معرفة حقيقة النفس والمفردات المتصلة بها و أنواعها وكيفية تزكيتها والارتقاء بها في مدارج الكمال وثمار ذلك في الدنيا ولآخرة

تأليف

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

الدكتور: أحمد خضر حسنين الحسن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استفتاح

قال الله تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)
[النازعات:40-41] .

وعن فَضَالَةَ بْن عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ) . رواه الإمام أحمد والحاكم والترمذي ، وقال : إسناده حسن.

قال الشافعي رحمه الله تعالى :

أمتُّ مَطَامِعِي فأرحتُ نَفْسي	فإنَّ النفسَ ما طَمِعَتْ تَهونُ
وأحييتُ القُنوعِ وكانَ ميتا	فَفي إحيائِه عِرْضٌ مصونُ
إذا طَمَعٌ يحلُّ بقَلْبِ عبدٍ	عَلَتْه مهانةٌ وعَلاه هونُ

وقال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى :

اعلم أنَّ مِفْتاحَ معرفةِ اللهِ تعالى هو معرفةُ النفسِ ، وليس شئٌ أقرَبُ إليكَ مِنْ نفسِك ، فإذا لم تعرفْ نفسَك فكيفَ تعرفُ ربك ؟ .

المحتويات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، خلقَ النفس فسوَّاها ونوَّه بشأنها وفي قرآنه نادها ، بل و أقسم بها وبصَّرَها بعيوبها وإلى الحق هداها وإلى عالي الدرجات في الجنة دعاها .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده له شريك له شهادة أسعد بها ،وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله نبي افتخرت الأمة الإسلامية برسالته وسعدت وارتفعت على سائر الأمم عند ما تتمسَّكُ بها ، فصلوات الله وتسليماته عليه وعلى آل بيته وعلى صحابته وعلى من اتبع سنته واهتدى بهديها .

وبعد : فإن المتأمل في حال كثير من المسلمين سيرى بوضوح شديد بعدهم عن طاعة رب الأرض والسموات ، فالكبائر التي تُرتكب كلَّ ساعة في ليل أو نهار لا يحصرها العاد : من ترك للصلاة وبخل بالزكاة وأكل للأموال بالباطل وتعامل مع البنوك الربوية وشرب للخمر ووقوع في الفاحشة وسوء للعشرة بين الأزواج ، وقطع للأرحام وتزوير للشهادات ووقيعة في الأعراض ، إلى غيرها مما يندى له الجبين ، مما هو مشاهد لا يحتاج إلى دليل أو برهان .

وأعظم من ذلك كله ما ظهر في الآونة الأخيرة من جرأة بعضِهم على الشريعة الغراء وعلى سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام ،وما وقع ذلك كله من هؤلاء وأولئك إلا لأنهم يظنون صحته بسبب انصرافهم عن القيام بالوظيفة التي من أجلها خُلِقوا وإهمالهم للرسالة التي بها شُرِّفوا و أُكرِمُوا ، وتغافلهم عن القرآن العظيم الذي به فُضِّلوا .

وسبب ذلك كله يرجع إلى طاعة النفس والانكباب على شهواتها وملذاتها بسبب جهلهم بحقيقتها وإلا لو علم هؤلاء ماهية النفس ومطالبها لما التفتوا إليها بل لجاهدوها بكل ما يستطيعون ولكن الو اقع يقول العكس ويا للأسف .

ومما يدعو للاستغراب من هذه الأحوال التي يعيشها كثير من المسلمين أن القرآن الكريم والسنة النبوية يدعوانهم إلى السيادة والريادة ويصيحان بهم صباحاً ومساءً هلمُّوا إلى الراحة والطمأنينة في الدنيا و السعادة الآخرة ، ولكن قلَّ المستجيبون.

*** *** ***

وكلُّ مَنْ قرأ القرآن وعرف منزلته وعظَّمه وتدبَّره يوقن بأنه من أوله إلى آخره ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول : يعتني بصفات النفس التي توصل إلى رضا الله، والقسم الآخر يعتني بالصفات التي تتصف بها النفس التي توصل إلى سخط الله، فهذا هو مجمل القرآن العظيم يتحدث عن أهل النار وصفاتهم، ويتحدث عن أهل الجنة وصفاتهم، ولهذا فقد أقسم الله تعالى بأطول قسم في كتابه الكريم على تزكية هذه النفس، فقال سبحانه : (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[الشمس : 1-9].ثم جاء جواب القسم: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس: 10-11]،فالله سبحانه أقسم بأن النفس التي يرتضيها ويحبها وبشَّر بأنَّ صاحبها يكون من المفلحين هو صاحب النفس التي تزكت .

هذه قضية كثيراً ما نغفل عنها وكثيراً ما ننساها، ولا يتذكر الإنسان هذه الحقيقة التي يجب أن تكون دائمًا هي محط نظره، وهي مكان شغله الشاغل لا يتذكرها الإنسان حق التذكر إلا إذا جاء ملك الموت يعالج هذه النفس البشرية ليخرجها من هذه الجثة لتصبح جثة هامدة، هنا يتذكر الإنسان الحقيقة ويعرفها ويتندم أشد الندم أنه لم يعرف هذه الحقيقة ولم يحاسب نفسه ولم يزكِّ نفسه ولم ينتبه لهذا الأمر[1].

من أجل ذلك جاءت هذه الرسالة للتعريف بالنفس بعد معرفة الله تعالى الخالق جل وعلا ، وسميتها :

التُّحْفَةُ الْبَهِيَّةُ في مَعْرِفَةُ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

هذا واللّهَ الكريمَ أسأل أن ينفعني بهذه الرسالة وأن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم وأن تكون سبباً في مغفرة ذنبي ورفع درجتي في الجنة وأن يفعل ذلك بالقارئ الكريم والقارئة الكريمة وأن يجزي خيراً كل من ينشرها .

أخوكم راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ : أحمد خضر حسنين الحسن

11/ جمادى الأولى – 1442 / المو افق 25/ ديسمبر– 2020

1- مقال : وقفات مع النفس - الشيخ د. : عقيل بن محمد المقطري - موقع ملتقى الخطباء .

المبحث الأول

توضيح مصطلحات ذات علاقة بالنفس البشرية في ضوء الآيات القرآنية

المطلب الأول : معنى مفردة الإنسان وصفاته في القرآن الكريم .

المطلب الثاني : معنى مفردة العقل ومكانته في الإسلام .

المطلب الثالث : معنى مفردة الفؤاد وصفاته في القرآن الكريم .

المطلب الرابع : معنى مفردة القلب وصفاته في القرآن الكريم .

المطلب الخامس : حقيقة مفردة الروح ومعانيها في القرآن الكريم .

هناك كلمات لها صلة وثيقة بالنفس البشرية وهي : الإنسان – الروح – العقل – القلب - الفؤاد – النفس [2]؛ و كلها وردت في القرآن الكريم متكررة بأعداد متفاوتة ، وما نصبو إليه هنا هو توضيح معانيها باختصار شديد لأن موضوع الرسالة هو النفس تحديدا ولكن أحببنا أن نشير إلى بقية هذه المصطلحات لشدة علاقتها بالنفس فسوف تزيدنا تجلية لحقائقها وما يتعلق بها ، و أيضا من باب لفت الانتباه إلى ضرورة تدبر هذه الكلمات التي نص الله تعالى عليها في كتابه ، إذ لولا ضرورة معرفتها لما أورده سبحانه في كتابه . وبيان ذلك في المطالب التالية :

المطلب الأول

معنى مفردة الإنسان وصفاته في القرآن الكريم

أما معناها : يقصد بها في كتاب الله : كل مخلوق من سلالة آدم عليه السلام ، وهي مفردة ذات دلالة شاملة لكل جنس ذكراً كان أم أنثى ، مؤمناً كان أو غير مؤمن .

وأما صفات الإنسان في القرآن :

ثبت بجلاء أن مفردة (الإنسان) عندما تُذكر في كتاب الله فإنها تُستعمل في سياق بيان الضعف في جانبين في مادة خلق ابن آدم وضعف نفسه .

وارتبط ذكر الإنسان بالنقص والجهل وكل سلوك مقيت يقترفه هذا المخلوق ، فكانت مفردة الإنسان مرادفة جامعة من جوامع الشر ، فيقترن مع ما يظهر منه من سوء وما يحيط به من حقارة وضعف وجهل .وكذلك جمع (إنسان) وهو (الإنس) فلم تذكر في سياق إلا في سياق كسياق مفردة (الإنسان) [3] .

*** *** ***

2- ومن الكلمات التي في القرآن ولها علاقة بهذا المجال (الإنس ، الناس ، البشر ، بني آدم) فهذه التسميات الشائعة في كتاب الله لنسل آدم عليه السلام ، وهي قريبة في معناها من (الإنسان) ولهذا لم أتطرق لها .

3- مقتبس من مقال : ذكرُ الإنْسَانِ فِيْ آيِ القُرآنْ – كتبها عدنان الغامدي – موقع أَوْجُهُ البَيَانْ فِي كَلَامِ الرَّحمَنْ .

ونصنِّف ذكر الإنسان في القرآن على ضربين لا ثالث لهما [4] :

أولهما : بيان ضعف وهوان مادة الخلق : وقد ورد في القرآن عدد من الآيات لتجلية هذا المعني ، منها : **قوله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانْ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ } [الحجر:26]**

وهنا يبين لنا الله جل وعلا حقارة مادة صنع الإنْسَانْ التي دفعت إبليس أن يتكبر عن السجود لهذا المخلوق .

وقوله تعالى : { خَلَقَ الإنْسَانْ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ } [النحل:4]

وهنا يبرز الله مرحلة أخرى من المراحل الضعيفة الحقيرة من خلق الإنْسَانْ وهو النطفة التي لا تكاد تذكر لحقارتها ودناءتها.

وقوله تعالى : { أَوَلَا يَذْكُرُ الإنْسَانْ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } [مريم:67] وهنا يذكر الله بأنه خلق الإنسان من لا شيء في صورة من صور التقريع واللوم والتذكير بأصل خلقته.

*** *** ***

وثانيهما : ضعف نفسه وسوء طويته وركونه لشهواته :

لقد قرن الله تعالى مفردة الإنْسَانْ في عدد من الآيات بأكثر الصفات سوءاً فاقترن الإنْسَانْ بالصفات التالية (**اليأس ، الكفر ، الإسراف في الذنب ، الظلم ، الخصام ، العجلة ، البخل والتقتير ، الجدال ، الجهل ، القنوط ، الإعراض ، الهلع والخوف ، ارتكاب الذنب ، الطغيان ، الخسران ، الجحود) فارتبط كل خلق ذميم بمفردة الإنْسَانْ بل أتى معظمها بصيغة المبالغة (قنوط ، كفور ، قتور ، هلوع ، ظلوم)** وسنقتصر على ذكر بعض تلك الصفات كما وردت في القرآن إذ ليس من المناسب استقصاؤها :

1- فمن الآيات التي ذمت الإنسان وكفره وسوء علاقته مع ربه : **قوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّ الإنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }** [يونس:12] .

4- المرجع السابق بتصرف .

وهذه صورة من صور جحود الإنسان لربه ونسيانه لفضله عليه ، فإذا أصيب بالضر فزع للدعاء والتضرع فما أن يجيب الله دعاءه ويكفيه ويكشف ما به حتى ينسى ما كان منه من تذلل وضعف وشكوى.

2- وَوُصِفَ الإنسانُ باليأس المقترن بالكفر في بعض حالاته : كما في قوله تعالى :{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ} [هود:9] وهذه صورة بشعة من صور اليأس المقترن بالكفر فعندما ينزع الله صحة أو مال من ابن آدم (**الإنسان**) فهو يئوس من عودتها إليه بمعنى مصرٌّ على اليأس يظهره دوماً في سره وعلانيته مظهراً التذمر المستمر والمتكرر ونسيان ما كان من سابقاً من يدٍ ونعمٍ أكرمه الله بها.

3- وَوُصِفَ الإنسانُ بسوء طويته وخسة نفسه : كما في قوله تعالى : {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم:34] فهو ظالم لنفسه كافر بنعم الله عليه برغم أنه جل جلاله يُسأل ويعطي بلا عدد ولا حصر.

4- وَوُصِفَ الإنسانُ بجحود فضل الله عليه ونسيان حاله عند رؤية هول الهلاك : وتضرعه لله حتى إذا نجاه أعرض وعصى وقسي قلبه على ربه الذي كان به رؤوفاً رحيماً والإعراض بعد رؤية هذا الهول من أعظم صور الجحود والاستكبار والكفر. قوله تعالى : { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا } [الإسراء:83].وفي هذه الآية صورة أخرى من فساد نفس الإنسان وسوء طويته فقدم تعالى حاله عند الإنعام وكيف أنه يعرض غير مستحضر لما أفضل الله عليه من خير ، وحين وقوع الشر عليه يئس متناسياً جاحداً بأن من بدأه بالنعم سبحانه قادر على كشف ما به من ضر.

5- ومن الصفات الذميمة للإنسان وهي البخل والإمساك كما قال تعالى :{ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا } [الإسراء:100]

يخبرنا جل وعلا عن الخصلة السيئة والصفة الذميمة في الإنسان وهي البخل والإمساك فلو كان يملك الإنفاق من خزائن الله التي لا تعلم ولا تعد ولا تنفد فإنه سيتردد في الإنفاق وتغلب صفة البخل والتقتير عليه ، فليحمد الناس ربهم أنه الكريم العظيم ، الحليم العليم لم يجعل خزائنه إلا بيده وحده سبحانه.

و أقول : هذه صفات الإنسان قبل أن يؤمن بالله تعالى ، وأما بعد الإيمان فإن صفاته تتبدل كما تشير آيات قرآنية كثيرة إلى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) سورة المعارج (19-22) .

الشاهد قوله تعالى : (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) الموصوفين بتلك الأوصاف فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، و أنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

*** *** ***

ومن القصص الشهيرة التي تدل على التأثير القوي للإيمان في تغيير صفات الإنسان قصة الصحابية الجليلة تماضر بنت عمرو ابن الشريد السلمية – المعروفة بالخنساء – رضي الله عنها ، كانت الخنساء شاعرة منذ عصر الجاهلية وعندما قُتل أخواها صخر ومعاوية، حزنت حزنًا شديدًا وبكتهما في الجاهلية أعوامًا طويلة وندبتهما بشعرها الحزين، وأسرفت في ذلك حتى امتلأ ديوانها بهذا الشعر الذي فيه الرثاء، ومما قالته في رثاء أخيها صخر:

وَإِنَّ صَخرًا لَوالِينا وَسَيِّدُنا ... وَإِنَّ صَخرًا إِذا نَشتو لَنَحّارُ

وَإِنَّ صَخرًا لَتَأتَمَّ الهُداةُ بِهِ ... كَأَنّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نارُ

مِثلَ الرُدَينِيِّ لَم تَنفَد شَبيبَتُهُ ... كَأَنَّهُ تَحتَ طَيِّ البُردِ أُسوارُ

وقالت تنعى أخاها معاوية:

ألا لا أرى في الناس مثل معاويةْ ... إذا طرقتْ إحدى الليالي بداهيَهْ

أَلا لا أرَىْ كفارس (الْجُونِ) فارسًا ... إذا ما دَعَتْهُ جُرأة وعلانيهْ

فأقسَمْتُ لا يَنفكُّ دَمْعِي وعولَتِيْ ... عَليك بحزنٍ ما دَعا الله داعيَهْ

هذا هو حال الخنساء في مقتل أخويها في الجاهلية، بكاء وحزن ورثاء لسنوات طويلة لم يبق لها دمع ولم يهنئ لها جفن، فكيف كان حالها بعد الإسلام، يروي كُتاب التراجم أنها قدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسلمةً مع قومها من بني سليمة و أنه كان يستنشدها الشعر كما رأينا، فتنشد أمامه فيعجبه شعرها ويقول لها مادحًا: «هيه يا خناس»، ولكن ماذا بعد ذلك؟؟ هل

بقيت الخنساء بعد إسلامها ترثي بأشعارها الجميلة الحزينة أخويها صخرًا ومعاوية؟ هل ظل الحزن والبكاء رفيقها في حلها وترحالها؟

بلغ الخنساء خبر استشهاد أولادها الأربعة مرفقًا بخبر النصر على الأعداء، فماذا كان موقفها يا ترى؟ هل بكت كما بكت أخوالهم قبل الإسلام؟ هل نعتهم ورثتهم أسفًا وحزنًا وألمًا كما رثت أخويها من قبل؟

إنَّ مَنْ يمعن النظر في موقف الخنساء من استشهاد أولادها الأربعة في يوم واحد وموقفها قبل الإسلام في مقتل أخويها لا يصدق أنها نفس المرأة، نفسها الخنساء التي بقيت زمنًا طويلًا ترثي وتبكي أخويها، رفعت يديها إلى السماء عندما بلغها نبأ استشهاد أولادها الأربعة في القادسية لتقول بلسانٍ و اثقٍ وقلبٍ مطمئن: الحمدلله الذي شرفني باستشهادهم و إني لأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. الله الله يا خنساء إنه الإيمان يا إخوتي يصنع المعجزات، الإيمان والرضا والاستسلام لقضاء الله كالكيمياء يغير طبائع الأشياء، رحم الله الخنساء، ورحم أولادها الأربعة، ورحم عمر أمير المؤمنين الذي بادر صبر العجوز واستبسالها بالدفاع عن دين الله بالشكر والامتنان، فأجرى لها أرزاق أولادها الأربعة حتى قُبض رحمه الله [5].

5- مقال : صحابيات - [26] الخنساء - لينا الحمصي.وتقول الكاتبة لين موقف الخنساء من استشهاد أولادها يذكرني بموقف امرأة فلسطينية تدعى أم نضال فرحات، رأيتها للمرة الأولى في التلفاز منذ سبع سنوات تقريبًا، ورأيتها للمرة الثانية شخصيًا أثناء زيارة لها إلى سوريا، في كلا المرتين كنت معجبةً بها ومدهوشةً، ولو كان الانحناء يجوز لغير الله لانحنيت لتلك المرأة إجلالًا واحترامًا و إكبارًا. هي أم لا كالأمهات، أم تصنع الأبطال، أم تذكرنا بالخنساء وبصحابيات رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله على هاتيك الصحابيات وعلى من يقتدي بهن إلى يوم القيامة، لم تكتف أم نضال بإيوائها المجاهدين المناضلين في منزلها بل قدمت أولادها أيضًا للاستشهاد في سبيل الله ليستردوا الأرض ويحموا العرض، في صورةٍ تشبه الخيال، كانت أم نضال تروي كيف تزاحم ولداها الأصغر والأكبر على الفوز بشرف البطولة والفداء، قد تدهشون كما دهشت أنا عندما تعلمون أن اختيار المتطوعين يتم بناءً على عملية قرعة لكثرة المتهافتين على طلب الشهادة في سبيل الله. تقول أم نضال: رست القرعة على ابني الأصغر، عندما عاد هو وأخوه إلى المنزل ونظرت في وجه ابني الأكبر علمت من دموع عينيه أنه لم يحظ بالشرف العظيم، دخل غرفته وأغلقها بمفتاح، سمعت صوته وهو يبكي و أنا خارج الغرفة، رجوته أن يفتح لي فلم يفعل، في اليوم الثاني أصبح مريضًا من كثرة حزنه وبكاءه، عندما رأى ابني الأصغر ما ألم بأخيه آثره على نفسه، نعم آثره، أعطاه دوره في الشهادة، فعادت إليه ضحكته واسترد عافيته، عندما ودعته إلى الباب، قبل يدي وهو يقول: ادعيلي يما، موعدنا بالجنة يما، فتقول أم نضال: أنا أمك كأي أم أحب أولادي أكثر من نفسي ولكني أحب وطني وديني أكثر منهم، و أنا أرجو الله تعالى أن يجمعني بهم في مستقر رحمته في جنة عرضها كعرض السموات والأرض. عندما سمعت أم نضال نعي ولدها، دمعت عيناها، فهي أم أولًا وبشرٌ ثانيًا، لكنها مع ذلك زغردت زغرودة الفرح بالجنة وزغرودة الأمل بالنصر وزغرودة البشرى باسترداد الأقصى الأسير وزغرودة رابعة وخامسة وسادسة، دموع وزغاريد كذا يُزف الشهداء في فلسطين وهكذا انزفت الخنساء وصحابيات الرسول صلى الله عليه وسلم، أولادهن وأزواجهن وأحبابهن عندما استشهدوا في سبيل الله تعالى.
(المصدر: موقع قناة الرسالة الفضائية – موقع طريق الإسلام) .

المطلب الثاني

معنى مفردة العقل ومكانته في الإسلام

أما معنى العقل : فهُوَوِعَاءُ الْفِطْرَةِ وَأدَاةُ ضَبْطِ السُّلُوك البَشَرِيّ المَبْنيّ عَلَى تَحْقِيْقِ فِهْمِ المُحِيْطِ المادّيّ ،وَالعَقْلُ السَّليم هُوَمَنَاطُ كُلّ فِعْلٍ حَسَنْ إذا اسْتَعْلَى فِيْهِ عَلَى الفُؤَادِ وضَبَطَ سُلُوكَه [6].

أنواع العقل : كان السلف يقولون : إن العقل عقلان : غريزي ، ومكتسب .

فالغريزي : هو ما نسميه بالمقدرات العقلية مِن فَهمْ ، وإدراك ، وفقه ، و اتساق في الكلام ، وحسن تصرف إلى آخر ما سنبينه بعد إن شاء الله . هذا العقل الغريزي هو موضوع مقالنا .

والعقل الغريزي هذا هو مناط التكليف ؛ فمن لا عقل له لا يكلف ، ومن فقد بعض مقدراته العقلية ؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها .

والذي أعطي عقلاً ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح ، ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين ، فلا يؤمن به ، لكنه يحاسب على عدم فقهه ؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله الاختياري لعقله (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) (يونس : 100) .

فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون :] (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام : 125) ، الرجس في أصله اللغوي هو النتن ، فكأن الآيتين الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع.

معاني العقل في القرآن [7] : هذه المعاني وردت بحسب نوع المعقول أعني نوع الشيء المراد عقله وفهمه ، ومن هذه المعاني :

1 – فهم الكلام : قال تعالى : (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة : 75) . وقال تعالى : (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً

6- ومقال : العَقْلُ وَ الْقَلْبُ وَ الفُؤَادُ فِي ضَوْءِ الْمَفْهُومِ القُرْآنيّ - كتبها عدنان الغامدي -موقع أَوْجُهُ البَيَانْ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنْ - بتصرف .

7- مقال بعنوان : مفهوم العقل – للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس - مجلة البيان العدد 158 شوال 1421 هـ (نقلا عن الموقع الرسمي للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس) .

لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف : 2). فبيَن أن السبب في جعله عربياً هو أن يفهمه ويعقله أولئك المتحدثون بهذه اللغة .

2 – عدم التناقض في القول : قال تعالى : (يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (آل عمران : 65) ، فالذي يقول : إن إبراهيم كان يهودياً أو نصر انياً كأنه يقول : إن إبراهيم كان سابقاً في وجوده لليهودية والنصر انية لكنه كان أيضاً لاحقاً لهما . وهذا كقوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُم قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (الأنعام : 91) .

هذا الكلام موجه لليهود الذين يزعمون أنهم يؤمنون بنبوة موسى ؛ فكأن الآية الكريمة تقول لهم : إن من التناقض أن تقولوا : إن الله أنزل التوراة على موسى ، ثم تقولوا : ما أنزل الله على بشر من شيء .

3 – فهم الحجج والبراهين : قال تعالى : (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الروم : 28) ، وقال تعالى : (قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (يونس : 16) .

4 – مو افقة القول للعمل : قال تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّوَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (البقرة : 44) ، ولذلك قال النبي الصالح شعيب عليه السلام كما حكى الله تعالى عنه : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود : 88) .

لكن تصحيح هذا التناقض إنما يكون بجعل العمل مو افقاً للقول الصحيح لا العكس ؛ فالذم في هذه الآية منصب على نسيانهم لأنفسهم لا لأمرهم بالبر ؛ لأن الأمر بالبر شيء حسن ، ولا يغير من حسنه كون الداعي إليه لا يلتزم به . وقد يأمر الإنسان به بإخلاص وإن لم يعمل به . فالذي يأمر أولاده بعدم التدخين أو عدم شرب الخمر مثلاً ، مع فعله لذلك ، خير من الذي يأمرهم بالتأسي به في فعله ، بل خير من الذي لا يأمرهم ولا ينهاهم .

5 – اختيار النافع وترك الضار سواء كان مادياً أو معنوياً : قال تعالى : (وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)(الأنعام : 32) . قال تعالى : (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (الأنبياء : 10) .

6 – التضحية بالمصلحة القليلة العاجلة من أجل مصلحة كبيرة آجلة : قال تعالى : (وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (القصص : 60) ، ويؤيد هذا آيات أخرى لم يرد فيها ذكر العقل ، منها قوله – تعالى – : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (التوبة : 38) .

7 – استخلاص العبر الصحيحة من الحوادث : قال تعالى : (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (العنكبوت : 35) ، يشير سبحانه وتعالى هنا إلى قرى قوم لوط التي قال عنها في آية أخرى مبيناً عدم إدراك الكفار لمغزاها بسبب إنكارهم للبعث : قال تعالى : (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القَرْيَةِ الَتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً) (الفرقان : 40) .

8 – استخلاص العبر مما جرى في التاريخ : قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ القُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (يوسف : 109) .

9 – فَهْم دلالات الآيات الكونية : قال تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة : 164) . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (النحل : 12) .

10 – حسن معاملة الناس ولا سيما الأنبياء عليهم السلام : قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) (الحجرات : 4) . هذه كلها مقدرات عقلية زود الله تعالى بها الناس أجمعين ؛ فهم جميعاً يقرون بها ، ويرون من عدم العقل ترك الالتزام بها ؛ لكن ما كلهم يلتزم في الواقع بها . ولذلك يكفي أن ينبه من خرقها إلى أنه أتى بفعل غير عقلي كما رأينا ذلك في آيات القرآن السابقة .

لكن ينبغي أن ننبه إلى أن بيان القرآن للمسائل العقلية وإقراره لها ليس محصوراً في الآيات التي ذكرت فيها كلمة العقل ، فهنالك آيات تذكر فيها كلمات أخرى تشير إلى المقدرات العقلية بذلك المعنى العام الذي ذكرناه ، بل إنه يبدو أن كل سؤال استنكاري في القرآن يدل على أن المسؤول عنه أمر بدهي ما ينبغي لذي عقل أن يماري فيه .

بل إن القرآن الكريم مليء بالآيات التي يمكن أن يتخذها المسلم موازين عقلية . ولعل هذه هي المرادة بالمعنى الثاني لمفهوم العقل ، أعني كونه علوماً يهتدي بها الإنسان .

*** *** ***

مكانة العقل في الإسلام [8] :

لقد اهتم الإسلام بالعقل اهتماما كبيرا، وأعلى من منزلته وقيمته، ويكفي ما ورد في كتاب الله تعالى من الآيات الكريمة التي تؤكد هذه الأهمية وتلك المكانة، **قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)** سورة الإسراء(70)، **ومن المعلوم أن من أبرز ما فضل الله به الإنسان على سائر مخلوقاته العقل.**

ومن يدقق في آيات القرآن الكريم يلاحظ أن إعمال العقل بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل جاء دائما بصيغة المدح والثناء، ناهيك عن الحض والطلب، قال تعالى: (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) سورة يونس(101)، **وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى)** سورة الروم(8) .

ويكفي الإشارة إلى أهمية **"العقل"** في كتاب الله أنها تكررت ومشتقاتها حوالي **سبعين مرة**، ناهيك عن الآيات التي تتصل بالعمليات العقلية كالتفكر والتأمل والنظر بتمعن في آيات الله في الأنفس والآفاق، والتي لا يمكن حصرها من كثرتها في كتاب الله.

*** *** ***

8- مقال مكانة العقل في الإسلام – موقع المسلم ، ومقال : العَقْلُ وَالْقَلْبُ وَ الفُؤَادُ فِيْ ضَوْءِ الْمَفْهُومِ القُرْآنيّ – كتبها عدنان الغامدي – موقع أَوْجُهُ البَيَانْ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنْ - بتصرف .

فإن قال قائل: ما هي وظيفة العقل في الإسلام [9]؟ فنقول: إن وظيفة العقل أمور كثيرة، ومنها:

1- اجتهاد العلماء بعقولهم في استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية، وخصوصاً للقضايا المستجدة كالصلاة في الطائرة، والصوم في بلاد فيها ليل متواصل، أو نهار متواصل، أو نحو ذلك في كل عصر بحسب ما يستجد فيه.

2- من وظائف العقل عمارة الأرض،واكتشاف كنوزها ومعادنها، والاختراعات،وسائر المكتشفات التي تطور حياة البشر.

3- من وظائف العقل قبل ذلك أيضاً التفكر في ملكوت السماوات والأرض، والنظر في آيات الله تعالى في السماء والأرض، قال تعالى : (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (سورة الذاريات21).

4- من وظائف العقل أن يتفكر في خلق الله، وحسن صنعة الله تعالى ليزداد صاحبه إيماناً، من وظائف العقل أن يوازن بين المصالح والمفاسد في الأمور المختلفة، مثل مسألة نكاح، أو وظيفة، ونحو ذلك.

ما هو السبب في جعلنا للنص فوق كل شيء؟ :

لأن الله قال : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) سورة الأحزاب36، وقال تعالى (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) سورة النساء65، العقل لا يمكنه أن يخترق حجب الغيب، ولا يمكنه أن يعرف المستقبل، كما أنه قاصر و محدود، حتى في الحاضر لا يدرك كل الحاضر، بل ربما يفكر الإنسان ويضرب أخماساً بأسداس ولا يتوصل للقرار الصحيح، ويكتشف بعد طول التفكير واتخاذ القرار وتنفيذه أنه كان قراراً خاطئاً، وربما حصل لمجموعة في مجلس إدارة شركة قرار جماعي يكتشفون بعده أن قرارهم كان خاطئاً، هذا في مجال الدنيا، فكيف إذا يتدخل العقل في رد النصوص الصحيحة، كيف إذا تدخل في الغيب، **الإيمان بالغيب** واجب، وهو من أهم صفات المؤمن التي ذكرها الله بقوله (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) سورة البقرة (3)، ولذلك قال علي رضي الله عنه : لو كان الدين بالرأي لكان مسح باطن الخف أولى من ظاهرها"، مسح باطن الخف أولى من ظاهره .

9- خطبة بعنوان : بدعة تقديم العقل على النقل – الموقع الرسمي للشيخ محمد صالح المنجد .

وقال أبو الزناد رحمه الله : "إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيراً على خلاف الرأي، فما يجد المسلمون بداً من اتباعها" .

وعليه .. لا يجوزلنا مطلقاً أن نحكم عقولنا في النصوص فنرد هذا ونقبل هذا؛ لأن العقل و افق هذا وخالف هذا، ما دام ثبت عن الله ورسوله يجب الأخذ به ولا بد.

ولذلك نعى العلماء من القديم على من قال بمسائل مخالفة للدليل، مثل قضية إشعار الهدي، ما هو إشعار الهدي؟ عندما يسوق الحاج هديه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لما حج قارناً وساق الهدي، فمن تعظيم شعائر الله أن يشعرها، ويقلدها، فوضع في رقبتها علامة على أنها هدي، وأشعرها وذلك بجرحها من جهة السنام ليسيل الدم على صفحتها، فتعلم بأنها هدي فلا توهب، ولا تباع، ولا تشترى، ولا تذبح إلا عند بلوغ الهدي محله، وإذا ضاعت لا يمكن التصرف بها من قبل من وجدها؛ لأنه يعلم أنها هدي.

إذن لا يجوز مطلقاً استعمال العقل في مخالفة النص، و إنما نفهم النص بالعقل، لا نرده ولا نخالفه، ولذلك لما اعترض بعضهم عند وكيع رحمه الله في قضية إشعار الهدي غضب غضباً شديداً، وقال: أقول لك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقول: قال فلان مثلة وتشويه، قال فلان: مثلة، ما أحقك بأن تحبس ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا.

*** *** ***

المطلب الثالث

معنى مفردة الفؤاد وصفاته في القرآن الكريم

معنى الفؤاد : هُوَوِعَاءُ الحَاضِرِالَّذِيْ يَتَلَقَّى مَا يَلِجُ فِيهِ مِنْ خِلَالِ الحَوَاسّ وَهُوُ مَنَاطُ العَوَاطِفِ والشُّعور مِنْ خَوْفٍ وَحُبّ وَرَجَاءٍ وَبُغْضٍ وَحِقْدٍ وَرِضًى وَشَهْوَةٍ وَسَعَادَةٍ وَحُزْنٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ المَشَاعِرِ البَشَرِيّة ، وَهُوُ مُتَعَلّقٌ بِكُلّ فِعْلٍ قَبِيْحْ إذا اسْتَعْلَى عَلَىْ العَقْلْ وَتَقَدَّمَ عَلَيْه .

وأما صفات الفؤاد في القرآن : الفؤاد مرده في اللغة إلى(الفأد) وهو الشوي والتوقد ، المعنى المتسق فعلا مع وظيفته التي يتوقد فيها الفؤاد ويشتعل عاطفة تجاه المواقف المختلفة بدرجة قد تصل للجور والتطرف والشطط حال تغييب القلب للعقل وتقديم الفؤاد عليه ، وهو المعنى الوارد في القرآن ، **قال تعالى : (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** [القصص:10].

وطالما كان الفؤاد مناط العاطفة فقد كادت أم موسى أن تبدي ماحدث لوليدها فرقاً وخوفاً عليه فكان الفؤاد سيفسد الأمر لولا أن الله أعلى العقل ومكنه على الفؤاد فحصل الربط على القلب فيتحقق الإيمان ، وهنا فإن الفؤاد يقدم ما يستقر لديه من مشاعر وعواطف على ما يوحيه العقل إليه من قناعات ، والخضوع لتلك العواطف الظاهرة وتجاهل نداءات العقل الباطنة هو مكمن الخطر.

ونجد ان الله تعالى ربط على قلب أم موسى عليه السلام حتى لا يتأثر بما ضج به الفؤاد ولم يمت الفؤاد أو يلغيه لأنه مكون رئيسي من مكونات النفس البشرية.

ولذلك فما يستقر في القلب من عقيدة هو الأصل وهو ما يُعتمد عليه أما الفؤاد وما يظهره على صفحات الوجه فيمكن أن يتم تزويره وتحويره لدرجة يصعب على الخبير معرفته ، فالمؤمن الذي يقع منه الكفر بالإكراه لا يؤاخذ عليه طالما كان **(قلبه مطمئن بالإيمان)** [10] .

وقال تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)[النجم:11] ولما كان الفؤاد متعلق بالحواس فيتفاعل مع ما يرى ويسمع ولقد بلغ من شدة حقيقة ما رأى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج ما استقر في فؤاده واطمئن إلى حقيقته برغم ضخامته وغرابته وعجائبه ، فطالما كان الأمر رؤية

10- مقال : العَقْلُ وَ الْقَلْبُ وَ الفُؤَادُ فِيْ ضَوْءِ الْمَفْهُومِ القُرْآنِيّ – كتبها عدنان الغامدي – موقع أَوْجُهُ البَيَانْ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنْ - بتصرف .

مباشرة فمحلها الفؤاد وهنا نجد أن العقل الممتلئ بالإيمان صدّقه الفؤاد وهذه الحالة المثالية التي يتوافق فيها مكونات القلب الرئيسية فيصطبغ القلب بصبغة الإيمان الكامل.

ومن ثمرات هذا المفهوم هو تأكيد أن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للأشياء والأشخاص والعوالم والأبعاد المختلفة - كما هو الحال في معجزة الإسراء والمعراج - **إنما كان على وجه الحقيقة ولم يكن خيالات أو وحي أو رؤيا بل حقيقة قادنا لتقرير ذلك مفهوم الفؤاد ووظيفته وأدواته.**

***   ***   ***

وآية أخرى تؤكد هذا المعنى وهي قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان:32] .

فالفؤاد قد يؤثر على العقل بدافع الخوف والحزن فيؤذي الإيمان فالفؤاد بحاجة للذكرى المستمرة من نوافذ السمع والبصر حتى لا تطغى عاطفة سلبية تحيده عن السبيل القويم فكان استمرار انصباب الوحي القرآني طيلة البعثة الشريفة وسيلة لتثبيت الفؤاد فكلما طال الأمد عن الفؤاد حزن أو شك نزلت جرعة قرآنية فثبتته على الحق ، ونرى كيف استعمل مفردة **(القرآن)** التي تشير للقراءة وبالتالي التعلق بالنظر و السماع ومن ثم النفاذ للفؤاد من منافذه المتعلقة به.

قال تعالى (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) [هود:120] .

فالقصص القرآني يستثير عواطف ويكبح أخرى فيثبت الفؤاد على الحق ولا ينحرف تحت وطاة وثقل الدعوة والتكذيب والأذى فيريه كيف أن الله ختم لكل الأنبياء بالنصر وأن ما يعتريك اليوم يا محمد من طرد وصد وتكذيب وسباب قد اعترى من سبقك من الرسل فلا تبتئس ولا يضج فؤادك باليأس والخوف والحزن فكانت تسلية فؤاده صلى الله عليه وسلم عن واقعه متحققة بهذا القصص العظيم.

***   ***   ***

المطلب الرابع

معنى مفردة القلب وصفاته في القرآن الكريم

معنى القَلْبْ : يطلق على أمرَين هما :

الأول : تلك المضغة الصنوبرية التي خلقها الله - تعالى - في جوف ابن آدم، وهي على هذا المعنى جزء من عالم الشهادة، كما هو معروف في علم الطب العضوي.

والثاني : تلك اللطيفة الروحانية التي لا يعلم أحدٌ بحقيقتها، وهي على هذا المعنى جزء من عالم الغيب [11]. بهذا تتجلى في هذا الإنسان مكوناته المادية والروحية، فهو قبضة من طين، ونفخة من روح.

وفي حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - جمع المعنيين: (ألا وإن في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) رواه البخاري .

قلت : والحديث على وجازته فيه عان جليلة : فصلاح القلب يعني صلاح الجسد كله من الناحيتين : الحسية والمعنوية :

أما الناحية الحسية : فمعلوم أن القلب السليم يمد الجسم بمقدار كاف من الدم بالمعدل المطلوب ليعمل جيدًا. إذا أضعف مرض أو إصابة القلب فلن يصل إلى الأعضاء دم كاف للعمل بصورة صحيحة. وبالتالي يمرض الجسم مرضا شديدا وربما أدى إلى الوفاة .

وأما الناحية المعنوية : فصلاح لقلب يعني سلامة العقيدة وأداء العبادة وحسن الخلق وسلامة الصدر تجاه الآخرين .

*** *** ***

وقال بعض الباحثين : القلب : هُوَ جِمَاعُ العَقْلُ وَالفُؤَاد وقائدهما يُرَجِّحُ ويتبع العَقْل عندمَا يعتليْ عَلَى الشَّهْوَةِ (الفُؤَادْ) أو العَكْسْ ، وهو مَنَاطُ الإدْرَاكِ وَمَنْشَأ الفِعْلِ والقَرَار [12].

11- منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم - خليل الحدري - ص (54) وإحياء علوم الدين – للغزالي – ربع المهلكات – شرح عجائب القلب .

12- مقال : العَقْلُ وَ الْقَلْبُ وَ الفُؤَادُ فِي ضَوْءِ الْمَفْهُومِ القُرْآنِيّ – كتبها عدنان الغامدي – موقع أَوْجُهُ البَيَانْ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنْ - بتصرف .

وأما صفات القلب في القرآن الكريم : فهي كثيرة جدا نكتفي بالإشارة إلى بعضها ويمكن تقسيمها إلى اربعة أقسام [13]:

القسم الأول : الصفات الإدراكية المعرفية : قال ابن القيم رحمه الله تعالى : "لما كان للقلب قوتان: قوة العلم والتميز، وقوة الإرادة والحب - كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوَّتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوَّة العلم في إدراك الحقّ ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوَّة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته، و إيثاره على الباطل، فمَن لم يعرف الحقَّ فهو ضالٌّ، ومَن عرفه و آثر غيره عليه فهو مغضوبٌ عليه، ومَن عرفه و اتَّبعه فهو مُنْعَمٌ عليه [14].

ومن صفات القلب الواردة في القرآن من هذا القسم :

الهداية : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: 11].

الفقه : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: 179].

الزيغ : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: 117].

العقل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: 46].

العمى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُوَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

التدبُّر: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: 24].

الإنكار: ﴿ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: 22].

***   ***   ***

القسم الثاني : الصفات الإرادية المعنوية والعملية : قال حجة الإسلام الغزالي ثم يقول : وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الجسمانى الذى هو فى صدر الإنسان . ومن الصفات الواردة في القرآن في هذا القسم :

13- أعمال وأحوال القلب في القرآن الكريم - د. بليل عبدالكريم – شبكة الألوكة – بتصرف .

14- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان"؛ أبي بكر محمد بن قيم الجوزية، المكتبة الثقافية، بيروت، ط(1)، 1989، ص 20.

- السلامة : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 89].
- الإنابة : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق: 33].
- الإثم : ﴿ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: 283].
- الاطمئنان : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل: 106].
- التقوى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: 32].
- التقلُّب : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: 37].
- الوَجَل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2].

*** *** ***

القسم الثالث : الصفات المقترنة بالقلب الواقع عليه، وهي أفعال الله في القلوب : ومن الصفات الواردة في القرآن في هذا القسم :

- الطبع : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: 35].
- الختم : ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: 24].
- الحيلولة بينه وبين ما يريد : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 24].
- الربط : ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10].

*** *** ***

القسم الرابع : القوة العلمية : وهي قوة الإدراك، والتمييز، وقبول العلم، وتخزينه وحفظه واستذكاره، وترتيبه والاستنباط منه.وهذه القوَّة هي من خصائص الجانب المعرفي، فمهمَّة القلب فيها العقل والتدبُّر والتفكُّر والسمع، والبصيرة والنظر والتأمل والفهم، بل هو النفس المدركة. نذكر أهم وظائف هذه القوة في نماذج:

التعقُّل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: 46].

التدبر: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: 24].

العلم : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 93].

السمع : ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: 100].

التبصير: ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُوَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

هذه الوظائف المذكورة في الآيات جميعها إدراكية معرفية، فالقلب هو العاقل والمتدبّر والمتفقِّه والعالم والسامع والمبصر، فهو الذي يدرك ما يتلقَّى من الحواس، وتعطُّله تعطُّلٌ للحواس، فالأذن تنقل المسموعات له، وخاصِّية السمع؛ بمعنى: إدراك المسموع وفهمه هي بالقلب، والعين تنقل المرئيَّات للقلب، وخاصية التبصُّر؛ بمعنى: إدراك المرئي وفهمه هي بالقلب، كما أن تأخُّر أو تعطُّل الإدراك بمراتبه يكون إمَّا لضعف طرق العلم إلى النفس أو لفقدانها، والله - تعالى - بيَّن أن الطبع على القلب والختم والإقفال والحجب له يعطله عن مهمة العلم، إما لأجزاء من العلم، أو للعلم كله.

*** *** ***

المطلب الخامس

حقيقة مفردة الروح ومعانيها في القرآن الكريم

الحديث عن مفردة الروح ليس كالمفردات السابقة لأن الوصول إلى حقيقة الروح من الصعوبة بمكان وذلك لقوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِرَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء:85)، **وإليك بعض ما قاله أهل العلم** [15]:

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : الرُّوح : لها معنيان:

أحدهما : جسم لطيف منبَعه تجويف القلب الجسماني يَسري في جميع أجزاء البدن سَريان نور السِّراج إلى كل أجزاء البيت، فالحياة مثل النور الواصل للجدران، والرُّوح مثل السِّراج، وسريان الروح وحركته في الباطن لمثل حركة السِّراج في جوانب البيت، وهذا المعنى يهتمُّ به الأطباء.

والمعنى الثاني للروح : هو لطيفة عالمة مدركة من الإنسان، وهو المعنى الثاني للقلب، وما أراده الله بقوله: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) سورة الإسراء :(85) **وهو أمر عجيب ربانيٌّ تعجز أكثر العقول والأفهام عن دَرك حقيقته.**

ومما يؤيد كلام الغزالي ما قاله بعض العلماء[16] : الروح ليس لأحد من سبيل إليها، بل هي مما اختص الله سبحانه بعلمها. ولعل الحكمة من إخفاء علمها عن المخلوقات، أن يتأمل الإنسان ويتحقق أن الروح التي جعل الله بها الحياة والراحة والقوة والقدرة والحس والحركة والفهم والفكر والسمع والبصر...هي من أمر الله، وهو يباشرها ويعايشها مدة حياته وطول عمره، ومع ذلك لا يصل علمه إلى شيء من كنه حقيقتها ودرك معرفتها، فكيف يطمع في الوصول إلى حقيقة خالقها وبارئها، **قال تعالى :(لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُوَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَۖوَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)** سورة الأنعام(103).

وقال بعض الباحثين : الروح : هِيَ الطَّاقَةُ الَّتِيْ يَبُثُّهَا اللهُ جَلَّ وَعَلا فِيْ المَخْلُوقْ فَتَبُثُّ معها الحياة والحركة والدفء والتجدد والنُّموّ.

15- إحياء علوم الدين – – ربع المهلكات – شرح عجائب القلب ومقال : الفَرْقُ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْوَفَاة وبَيْنَ الرُّوح وَ النَّفْس - كتبها عدنان الغامدي – موقع أَوْجُهُ البَيَانْ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنْ - بتصرف .

16- مقال : لفظ (الروح) في القرآن الكريم - إسلام ويب .

من معاني الروح في القرآن الكريم [17]:

لفظ (الروح) ورد في القرآن الكريم في ثلاثة وعشرين موضعاً، وردت جميعها بصيغة الاسم، من ذلك قوله سبحانه:(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (النحل:2). ولم يرد لهذا الاسم صيغة فعلية في القرآن.

أما قوله سبحانه: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) (النحل:6)، فهو مأخوذ من راح يروح: إذا رجع وهو مقابل لـ غدا يغدو: إذا ذهب. وعلى هذا أيضاً قوله عز وجل: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) (سبأ:12) [18].

ولفظ (الروح) ورد في القرآن على عدة معان، نذكر منها :

- الروح بمعنى (الحياة التي يكون بها قِوام الكائنات)، ومنه قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِرَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء:85)، فُسِّر(الروح) في الآية هنا على أنه العنصر المركب في الخلق الذي يحيا به الإنسان.

قال الشوكاني رحمه الله : "اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين".

ونقل الشوكاني أقوالاً أُخر في معنى الآية، ثم قال: "والظاهر القول الأول"، يعني ما تقدم.

*** *** ***

17- السابق – بتصرف .

18- من الآيات التي وردت فيها مفردة الروح :

(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِرَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)﴿٨٥ الإسراء﴾

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) ﴿٨٥ الإسراء﴾

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) ﴿١٩٣ الشعراء﴾

(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَيَوْمَ التَّلَاقِ) ﴿١٥ غافر﴾

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) ﴿٣٨ النبإ﴾

(وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ﴿٨٧ البقرة﴾

(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) ﴿١٧١ النساء﴾

(اذْكُرْنِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ﴿١١٠ المائدة﴾

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) ﴿٢٩ الحجر﴾

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿٢ النحل﴾

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) ﴿١٠٢ النحل﴾

- الروح بمعنى (بمعنى مَلَك من الملائكة)، ومنه قوله تعالى: {يوم يقوم الروح والملائكة صفا} (النبأ:38)، قيل في معنى الآية: إنه ملك من الملائكة. وقد نقل الطبري أقوالاً أخر في الآية، بيد أنه لم يقطع بواحد منها. ومال ابن كثير إلى أن يكون المقصود بـ(الروح) في الآية بني آدم.

- الروح بمعنى (القرآن والوحي)، ومنه قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) (الشورى:52)، قال ابن كثير: يعني القرآن. ونحوه قوله سبحانه: (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (النحل:2)، قال القرطبي: الروح: الوحي.

- الروح بمعنى (جبريل)، ومنه قوله تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) (النحل:102)، يعني: جبريل عليه السلام. ومن هذا القبيل قوله سبحانه: (و آتينا عيسى ابن مريم البينات و أيدناه بروح القدس) (البقرة:87)، قال الطبري: الروح في هذا الموضع: جبريل.

- الروح بمعنى (النصر)، ومنه قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) (المجادلة:22)، قال الشوكاني: قواهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً؛ لأن به يحيا أمرهم. وقيل: (الروح) في الآية هنا بمعنى: البرهان.

- الروح بمعنى (الرحمة)، ومنه قوله تعالى: (وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (يوسف:87)، قال قتادة: أي: من رحمة الله. ومن هذا القبيل قوله سبحانه: (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) (النساء:171)، قيل في معنى الآية: معناه في هذا الموضع: ورحمة منه. قالوا: فجعل الله عيسى عليه السلام رحمة منه على من اتبعه وآمن به وصدقه؛ لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد. وهذا على قول في معنى الآية.

- الروح بمعنى (القدرة الإلهية على الخلق)، ومنه قوله تعالى:(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (الحجر:29)، أي : إن الإنسان مخلوق من خلق الله وكائن بقدرته .

*** *** ***

فائدة : قال ابن القيم رحمه الله تعالى: هَل النَّفس وَالروح شَيْء وَاحِد أَو شَيْئَانِ متغايران ؟ [19]

فاختلف النَّاس فِي ذَلِك فَمن قَائِل أَن مسماهما وَاحِد وهم الْجُمْهُور وَمن قَائِل أَنَّهُمَا متغايران وَنحن نكشف سر الْمَسْأَلَة بحول الله وقوته فَنَقُول النَّفس تطلق على أُمُور أحدهَا الرّوح قَالَ الْجَوْهَرِي النَّفس : الرّوح يُقَال خرجت نَفسه - أي روحه - ، قَالَ أَبُو خرَاش :

نجما سالما وَالنَّفس مِنْهُ بشدقه وَلم ينج إِلَّا جفن سيف ومئزر

قلت – الكلام لابن القيم - وَالنَّفس فِي الْقُرْآن تطلق على الذَّات بجملتها كَقَوْلِه تَعَالَى {فَسَلمُوا على أَنفسكُم} وَقَوله تَعَالَى {يَوْم تَأتي كل نفس تجَادل عَن نَفسهَا} وَقَوله تَعَالَى (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) وَتطلق على الرّوح وَحدهَا كَقَوْلِه تَعَالَى (يَا أَيَّتُهَا النَّفسُ المطمئنَّةُ) وَقَوله تَعَالَى أخرجُوا أَنفسكُم وَقَوله تَعَالَى (وَنهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) .

وَأما الرّوح فَلَا تطلق على الْبدن لَا بانفراده وَلَا مَعَ النَّفس ،وَسميت الرّوح روحا لِأَن بهَا حَيَاة الْبدن وَكَذَلِكَ سميت الرّيح لما يحصل بهَا من الْحَيَاة وَهِي من ذَوَات الْوَاو وَلِهَذَا تجمع على أَرْوَاح قَالَ الشَّاعِر

إِذا ذهبت الْأَرْوَاح من نَحْو أَرْضكُم وجدت لمسرها على كَبِدِي بردا

فَالْفرق بَين النَّفس وَالروح فرق بِالصِّفَاتِ لَا فرق بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا سمي الدَّم نفسا لِأَن خُرُوجه الَّذِي يكون مَعَه الْمَوْت يلازم خُرُوج النَّفس وَإِن الْحَيَاة لَا تتمّ إِلَّا بِهِ كَمَا لَا تتمّ إِلَّا بِالنَّفسِ فَلِهَذَا قَالَ الشاعر:

تسيل على حد الظبات نفوسنا وَلَيْسَت على غير الظبات تسيل

وَقَالَت فرقة أُخْرَى من أهل الحَدِيث وَالْفِقْه : الرّوح غير النَّفس .

قَالَ مقَاتل بن سُلَيْمَان : للْإنْسَان حَيَاة وروح وَنَفس فَإِذا نَام خرجت نَفسه الَّتِي يعقل بهَا الْأَشْيَاء وَلم تفارق الْجَسَد بل تخرج كحبل ممتد لَهُ شُعَاع فَيرى الرُّؤْيَا بِالنَّفسِ الَّتِي خرجت مِنْهُ وَتبقى الْحَيَاة وَالروح فِي الْجَسَد فِبهِ يتقلَّب ويتنفَّس فَإِذا حُرِّكَ رجعت إِلَيْهِ أسْرع من طرفَة عين فَإِذا أَرَادَ الله عزوَجل أَن يميته فِي الْمَنَام أمسك تِلْكَ النَّفس الَّتِي خرجت وَقَالَ أَيْضا إِذا نَام خرجت

19- كتاب الروح - الْمَسْأَلَة العِشْرُونَ – باختصار.

نَفسه فَصَعدت إِلَى فَوق فَإِذا رَأَتْ الرُّؤْيَا رجعت فَأخْبرت الرّوح ويخبر الرّوح فَيُصْبِح يعلم أَنه قد رأى كَيْت وَكَيْت .

*** *** ***

وَقَالَت طَائِفَة وهم أهل الْأَثر: أَن الرّوح غير النَّفس وَالنَّفس غير الرّوح وقوام النَّفس بِالروحِ وَالنَّفس صُورَة العَبْد والهوى والشهوة وَالْبَلَاء معجون فِيهَا وَلَا عَدو أعدى لِابْنِ آدم من نَفسه فَالنَّفْس لَا تُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا وَلَا تحب إِلَّا إِيَّاهَا وَالروح تَدْعُو إِلَى الْآخِرَة وتؤثرها وَجعل الْهوى تبعا للنَّفس والشيطان تبع النَّفس والهوى وَالْملك مَعَ الْعقل وَالروح وَالله تَعَالَى يمدهما بإلهامة وتوفيقه .

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ — وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ

مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ عَارِفٍ — وَهْيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ

وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا — كَرِهَتْ فِرَ اقَكَ وَهْيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ

أَنِفَتْ وَمَا أَلِفَتْ فَلَمَّا وَاصَلَتْ — أَنِسَتْ مُجَاوَرَةَ الخَرَابِ البَلْقَعِ

تَبْكِي إِذَا ذَكَرَتْ عُهُودًا بِالْحِمَى — بِمَدَامِعٍ تَهْمِي وَلَمَّا تُقْلِعِ

حتى إِذَا قَرُبَ الرُّجُوعُ إِلَى الحِمَى — ودَنَا الرَحِيلُ إِلَى الفَضَاءِ الأَوسَعِ

أَخَذَت تُغَرِدُ فَوقَ ذُروَةِ شَاهِقٍ — والعِلمُ يرفَعُ كُلَ مَن لمَ يرفع

تنبيه : لما كان موضوع الرسالة هو معرفة النفس وما يتعلق بها لم أتعرض لها في هذا التمهيد ليجد القارئ في بقية صفحاتها ما يشفي غليله من تلك المعرفة .

*** *** ***

المبحث الثاني

حقيقة النفس البشرية في المصطلح وفي القرآن الكريم

مدخل : الإنسان كائن الاستثنائي .

المطلب الأول : تعريف تعريف النفس عند القدامى والمعاصرين .

المطلب الثاني : معاني النفس في القرآن الكريم .

المطلب الثالث : قواعد لفهم طبيعة النفس .

مدخل

الإنسان كائن الاستثنائي

الإنسان هو الكائن الاستثنائي الذي تغير شكل الكرة الأرضية بعد نزوله بها (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) سورة البقرة (38)، الكائن الذي يشعر بالعديد من المشاعر المتشابهة والمتناقضة للأشياء من حوله.... الكائن المسؤول عن التطور وقيام الحضارات المختلفة وتدوينها لينتج العالم المتقدم الذي نعيشه الآن.... وهو في نفس الوقت المسؤول عن الحروب التي أدت إلى القتل والخراب في نواحي العالم!

هذا التناقض الغريب داخل النفس الإنسانية أدى إلى العديد من الأسئلة الأساسية مثل: ما الإنسان؟ ما وظيفته في الحياة؟ وما هي طاقاته؟ وكيف يتم التحكم بها؟ وما هي المشاعر وكيف يتم خلقها في داخله؟

ومن هنا بدأت الاتجاهات الفكرية والفلسفية والدراسات النفسية في محاولة تفسير ماهية نفس الإنسان [20].

وهكذا تعددت الدراسات والمدارس التي تحدثت عن حقيقة النفس [21] ولكن الذي تطمئن إليه نفس الباحث هو ما جاء على لسان أهل الشرع سواء كانوا من أهل التربية أو من المفسرين أو المحدِّثِينَ وما عدا ذلك من الأقوال فهو تشويش للفكر وتضييع للوقت [22].

ومما درج عليه الباحثون في هذا المقام البحث في معنى النفس في اللغة والاصطلاح ولتتضح الصورة أكثر سأضيف إليهما معناها في القرآن الكريم ، ومعرفة طبائعها فتكون لدينا ثلاثة مطالب ، ولبيان ذلك أقول سائلا الله السداد والقبول : [23]

20- نظريات شهيرة حاولت الوصول إلى حقيقة النفس البشرية - مقال من محمد أنور الحجري - موقع أراجيك - بتصرف .

21- وقد تفرعت أفكار الفلاسفة قديما في النفس إلى ثلاثة اتجاهات : اتجاه سقراط و أفلاطون ، و اتجاه أرسطو ومن تبعه من علماء النفس ، و اتجاه حاول التوفيق بين الاتجاهين . (بحث مفهوم النفس الإنسانية في الفكر التربوي – لمحمد درويش درويش).

22- بعد أن كتبت هذا الكلام وجدت أحد الباحثين يقول : (ولا أدري لماذا لم يلتفت الباحثون إلى هذا التراث – يعني ما كتبه علماء الإسلام عن النفس - إلى الآن ، و اكتفوا بفرويد ، ولاكان وبافلوف وثورنديك .... وغيرهم ممن جعلوا النفس الغربية الأوربية مقياسا للنفس الإنسانية عامة ؛ فوضعوا القواعد لها ظانين أنها تصلح لكل زمان ومكان ، مغفلين اختلافات البيئات والعوامل والأفكار).

23- حقيقة النفس في القرآن الكريم ومعانيها - للشيخ صلاح بن سمير محمد مفتاح – الألوكة – بتصرف .

المطلب الأول

تعريف النفس عند القدامى والمعاصرين

1- بعض تعريفات النفس في اللغة[24]:

أولًا: النفس بمعنى الروح، يقال: خرجت نَفْس فلان؛ أي: روحه [25]، ومنه قولهم: فاضَتْ نَفْسه؛ أي: خرجت روحه [26].

ثانيًا: النفس بمعنى "حقيقة الشيء وجملته، يقال: قتل فلانٌ نَفْسه؛ أي: ذاته وجملته، وأهلك نَفْسه؛ أي: أَوقَع الإِهلاك بذاته كلِّها [27]، ومنه قول صاحب الصحاح "والتكبر: هو أن يرى المرء نَفْسه أكبر من غيره"؛ أي: ذاته[28].

ثالثاً: النفس ما يكون به التمييز، والعرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز نفسين؛ وذلك أن النَّفْس قد تأمره بالشيء وتنهَى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمره نَفْسًا، وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى [29].

2- تعريف النفس في الاصطلاح :

قال صاحب كتاب التعريفات : النَّفْس هي الجوهر البخاريُّ اللطيف، الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم : الروح الحيو انية، فهو جوهرٌ مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم، فينقطع عن ظاهر البدن دون باطن [30].

*** *** ***

24- النفس الانسانية في القران الكريم - الدكتور عادل عمر - مركز مقديشو البحوث والدراسات – بتصرف .
25- لسان العرب للمؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، ابن منظور الأنصاري، الرويفعي، الإفريقي .
26- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي .
27- باختصار من لسان العرب – مادة (نفس) .
28- باختصار من كتاب الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية .
29- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – لأبي طاهر، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي .
30- التعريفات – للعلامة علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني - بإيجاز بسيط.

ويرى أبو حامد الغزالي رحمه الله أن مصطلحَ النفسِ يُطلقُ بمعنيينِ :

أحدهما : أن يطلقَ ويراد به المعنى الجامعُ للصفات المذمومةِ، وهي القوى الحيوانيةُ المضادةُ للقوى العقليةِ.

والثاني : أن يُطلقَ ويراد به حقيقةُ الآدمي وذاتُه؛ فإن نفسَ كلِّ شيءٍ حقيقتُه، وهو الجوهرُ الذي هو محِلُّ المعقولاتِ، وهو من عالم الملكوتِ [31].

ويراد بالنفس إما المعنى الجامعُ لقوة الغضبِ والشهوةِ في الإنسان، أو اللطيفة التي هي الإنسانُ بالحقيقة، وهي نفسُ الإنسانِ وذاتُه، ولكنها توصفُ بأوصاف مختلفةٍ بحسب اختلافِ أحوالِها؛ فإذا سكنت تحت الأمرِ ولم يحصل فيها الاضطرابُ بسبب معارضة الشهواتِ، سُمِّيت النفس المطمئنةَ؛ قال الله تعالى في مثلها: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: 27، 28]. والنفس بالمعنى الأول لا يُتصورُرجوعُها إلى الله تعالى؛ فإنها مبعدةٌ عن الله) [32].

*** *** ***

وقال الفخر الرازي رحمه الله تعالى :

واعلم أن نفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك : (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت ، إلا أن المشار إليه بهذه الإشارة ليس هو هذه البنية لوجهين :

الأول : أن المشار إليه بقولك : (أنا) قد يكون معلوما حال ما تكون هذه البنية المخصوصة غير معلومة ، والمعلوم غير ما هو غير معلوم .

والثاني : أن هذه البنية متبدلة الأجزاء والمشار إليه بقولك : (أنا) غير متبدل ، فإني أعلم بالضرورة أني أنا الذي كنت موجودا قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، والمتبدل غير ما هو غير متبدل ، فإذا ليست النفس عبارة عن هذه البنية ، وتقول : قال قوم إن النفس ليست بجسم

31- معارج القدس، في مدارج معرفة النفس"، الطبعة الثانية، دار الآفاق الجديدة - بيروت، 1975م، ص 15). (نقلا عن مقال النفس عند الغزالي.. قراءة أولى - دة . رواء محمود حسين – شبكة الألوكة) .

32- إحياء علوم الدين - دار المعرفة - بيروت، بدون تاريخ، 3/ 3 - 4).

لأنا قد نعقل المشار إليه بقوله : (أنا) حال ما أكون غافلا عن الجسم الذي حقيقته المختص بالحيز الذاهب في الطول والعرض والعمق .

وقال آخرون : بل هو جوهر جسماني لطيف صاف بعيد عن مشابهة الأجرام العنصرية نوراني سماوي مخالف بالماهية لهذه الأجسام السفلية ، فإذا صارت مشابكة لهذا البدن الكثيف صار البدن حيا وإن فارقته صار البدن ميتا ، وعلى التقدير الأول يكون وصفها بالمجيء والرجوع بمعنى التدبير وتركه ، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك الوصف حقيقا .

*** *** ***

تعريف النفس عند العلماء المعاصرين : ذكر العلماء المعاصرون للنفس عدةَ تعريفات[33]؛ منها:

أن النفس : هي جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة؛ إدراكيةً، أو حركية، أو فكرية، أو انفعالية، أو أخلاقية؛ سواء أكان ذلك على مستوى الو اقع، أو على مستوى الفهم، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلهما وتبادلهما التأثير المستمر والتأثر، مكونين معًا وحدةً متميزة نطلق عليها لفظ (شخصية) تُميز الفرد عن غيره من الناس، وتؤدي به إلى تو افقه الخاص في حياته" [34].

يقول الدكتور عبدالكريم الخطيب في تفسيره - مجيبًا عن سؤال فما النفس؟:-

والجواب الذي نعطيه عن هذا السؤال مستمَدٌّ من القرآن الكريم، بعيدًا عن مقولات الفلاسفة وغير الفلاسفة ممن لهم حديث عن النفس.

وعلى هذا نقول: يُشخِّص القرآن الكريم النَّفْس ويجعلها الكائن الذي يُمثل الإنسان أمام الله، بل أمام المجتمع أيضًا؛ فالقتل الذي يصيب الإنسان هو قتل للنفس؛ كما يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]، ويقول جل شأنه: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعً﴾ [المائدة: 32].

وفي مقام القصاص تحسب ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45]، وفي مقام التنويه بالإنسان، ودعوته ليلقَى الجزاء

33- النفس الانسانية في القران الكريم - الدكتور عادل عمر - مركز مقديشو البحوث والدراسات – بتصرف .

34- الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف الدكتور محمود حمدي زقزوق.

الحسن، تُخاطَب النفس وتُدعَى، فيقول سبحانه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30].

والنفس في القرآن هي الإنسان المسؤول المحاسَب: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: 30].

وقد لخص البعض كل ما سبق بقوله : النَّفْس : هِيَ ذَاتُ الإِنْسَانِ الحَقيْقيَّة الثَّابِتَة التِيْ خَلَقَهَا اللهُ جَلَّ وَعَلاَ وَقَدَّرَ سَكَنَهَا وَتَنَقُّلَهَا فِيْ الأطْوَارِ وَالأجْسَادِ المُخْتَلِفَةِ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدَمَ وَهِيَ مَنَاطُ الإرَادَةِ وَالإدْرَاكِ[35].

*** *** ***

35- مقال : الفَرْقُ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْوَفَاة وبَيْنَ الرُوح وَ النَّفْس - كتبها عدنان الغامدي – موقع أَوْجُهُ البَيَانْ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنْ.

المطلب الثاني

معاني النفس في القرآن الكريم

وردت (النَّفْس) في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وتعدَّدت معانيها بحسب سياق الآيات الكريمة الواردة فيها، ومن هذه المعاني:

أولًا: النفس بمعنى الرُّوح، خرجت نَفْسه، خرجت رُوحه، والدليل على أن النفس هي الروح قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42]؛ يريد الأرواح [36].

ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: 93]، وذلك أن الكافر إذا احتُضِر بشَّرتْه الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلالِ والسلاسل، والجحيم والحميمِ، وغضب الرحمن الرحِيمِ، فتتفرَّق رُوحه في جسده، وتعصى وتأبَى الخروج، فتَضْرِبهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]؛ أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذِبون على الله، وتستكبرون عنِ اتِّبَاعِ آياته، والانقياد لرسله [37].

ثانيًا: النفس بمعنى الإنسان؛ أي : الشخصية البشرية بكامل هيئتها، وهي الإنسان بكامل دمه ولحمه وشخصيته، وهذا كثير وغالب في القرآن، فمِن ذلك الآيات التالية :

قال الله تعالى مخاطبًا الناس عامة وبني إسرائيل خاصة، بأن يحذروا يوم الحساب ويعملوا صالحًا، وأن الإنسان يأتي ربه في ذلك اليوم فردًا ولا تنفعه شفاعة الشافعين: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: 48]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145].

وقد شاع استعمالُ النَّفْس في الإنسان خاصة؛ حيث تطلق ويراد بها هذا المركَّب والجملة المشتملة على الجسم والروح [38].

36- مستفاد من كتاب جامع البيان في تفسير القرآن - لابن جرير بن يزيد الطبري .

37- تفسير القرآن العظيم - لابن كثير.

38- آفات النفس؛ تأليف نعيمة عبدالله البرش، إشراف الدكتور رياض محمود قاسم.

ويظهر هذا في غيرِ ما سَبَق، في قوله تعالى أيضًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: 33]. والمقصود هنا الرجلُ الذي قتله موسى عليه السلام في أرض مصر؛ يعني الرجل القبطي.

ثالثًا: النفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان (العقل):

ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]؛ قال الطاهر بن عاشور في تفسيره: "والنَّفْس تُطلَق على العقل وعلى ما به الإنسان إنسان، وهي الروح الإنساني، وتطلق على الذات، والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده؛ أي: تعلم ما أعلمه؛ لأن النفس مقرُّ العلوم في المعارف، وإضافة النفس إلى اسمِ الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطَّلِع عليه غيره؛ أي: ولا أعلم ما تعلمه؛ أي: مما انفردت بعمله، وقد حسَّنه هنا المشاكلة كما أشار إليه في الكشاف [39].

رابعًا: النفس بمعنى قُوى الخير والشر في الإنسان:

النفس بمعنى قوى الخير والشر لها صفات وخصائص كثيرة؛ منها: القدرة على إدراك الخير والشر، والتمييز بينهما، والاستعداد لهما؛ قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7، 8]، وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]؛ أي: بيَّنا له الطريقين، طريق الخير وطريق الشر، وهناك إلى جانب الاستعدادات الفطرية الكامنة قوةٌ واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، فمن استخدم هذه القوة في الخير وغلَّبها على الشر، فقد أفلح، ومَن أظلم هذه القوة وجناها وأضعفها، فقد خاب، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: 9، 10].

بالنظر في التعريفات السابقة نرى القرآن الكريم يُحدِّث عن النفس، على أنها كائنٌ له وجود ذاتي مستقلٌّ، وبمعنى آخر فإن القرآن يخاطب الإنسان في ذات نفسِه، باعتبار أن النفس هي القوة العاقلة المدركة فيه، فيقول سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7، 8].

ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30].

39- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المسمى التحرير والتنوير- للعلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي،

ويقول: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: 18].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [الطلاق: 1].

ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: 6].

فالنَّفْس هنا وفي مواضع أخرى كثيرةٍ من القرآن، هي الإنسان العاقل المكلف، وهي الإنسان الذي يُتوقَّع منه الخير أو الشر، والهدى أو الضلال، ثم هي الإنسان بجميع مشخصاته جسدًا ورُوحًا.

*** *** ***

المطلب الثالث

قواعد لفهم طبيعة النفس البشرية

هذه بعض القواعد التي من خلالها يتمكن المسلم معرفة السبل التي بها يتعامل معها [40] :

أولاً : النفوس لها طباع، والطبائع النفسية منها ما يُخلق عليها الإنسان ويُصبغ عليها كالنفس العَجِلة أو الغضوبة أو المتأنية أو الحليمة، وقد شُبِّهت تلك الطبائع التي يخلق عليها الإنسان بمعادن الأرض التي خلقت فيها؛ ففي الحديث: (الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقِهوا)؛ [رواه مسلم].

ثانياً : للنفوس شهواتٌ يشترك الناس في بعضها ويختلفون في بعضها، وما يتفقون فيه يتفاوتون في مقدار تعلق نفوسهم به، فهم مثلًا يشتركون في حب المال والطعام والجاه والسمعة الطيبة، ولكنهم يتفاوتون في مقدار تعلقهم بذلك.

والمحذور من شهواتها ما يصل بصاحبه إلى مخالفة الشرع، كأن يصل به حب المال إلى تحصيله عن طريق الغش أو الرشوة أو الشح، وأمُّ شهوات النفس حبها للجاه.

والمقصود : حب الجاه الزائد الذي يجعله الغاية ومنتهى المطالب؛ ولذا فبعض النفوس مع حبها للمال، فإنها قد ترخصه وتجود به لتحصل على الجاه عند الناس، بل قد تقدم على الموت لتحصل على مدح الناس.

وفي حديث : (أول من تسعر بهم النار يوم القيامة) عند مسلم، نجد صنفًا بذل حياته: (ولكنك قاتلت ليُقال: فلان جريء)، وصنفًا بذل ماله: (ولكنك فعلت ليقال: هو جواد)، وآخر بذل وقته: (ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ)، فكلهم لم يخلصوا لله التعبد، وغايتهم الجاه - نسأل السلامة والعفو والعافية - ومن ابتُلِيَ بحب الجاه ابتلي بالكبر والحسد؛ أما الكبر؛ فلأن النفس تريد بالجاه علوًّا.

ولذا قال أبو جهل : "والله إني أعلم إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبدمناف تبعًا؟"، وفيه نزل قول الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33]، **فالإقرار بما جاءت به**

40- مقال بين النفس والعقل (2) - حسام بن عبدالعزيز الجبرين – الالوكة ، ومقال: النفس لا تأمر بخيرٍ قط موقع الكلم الطيب - بتصرف .

الرسل يكسر جاهَ تلك النفوس المتكبرة؛ قال الله عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]، وقال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: 87]، وفي الحديث: (الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس)؛رواه مسلم، فالكبر يجعل الإنسان لا يخضع للحق ولو تبين له.

*** *** ***

ثالثاً : النفس تحتوي نقاط ضعف ونقاط قوة : الكثير منا لديه نقاط قوة ولكن لا يستفيد منها حق الاستفادة ، أو لا يوظفها التوظيف الأمثل. كما أن لديه الكثير من نقاط الضعف التي تعرقل مساعيه لتحقيق أهدافه ، وتشل فاعليته الشخصية.

إن رحلة التغيير الإيجابي في الحياة تبدأ بالتعرف على النفس. وبعد التعرف على النفس يأتي تطويعها وقيادتها وسياستها وتوجيهها لما فيه الخير والصلاح .

رابعاً :النفس لا تأمر بخيرٍ قط : حتى لو وصلت إلى مرحلة النفس المطمئنة، فإذا وجدت نفسك تنقاد لك في فعل بعض الطاعات، فاعلم أن ذلك ليس برغبتها .. وإنما خوفك من الله ومن الآخرة كان باعثًا على قهر النفس والرغبة في الابتعاد عن الانحراف الذي تأمر به، فسجنت نفسك حتى صارت بين يديك كالأسير المقهور على فعل جميع ما تأمره به .

حتى إذا فتحت لها الباب ظنًا منك أنها قد ثبتت على الطاعات، تحررت من قيودها وعادت إلى ما كانت عليه من الأمر بالسوء .

فإذا قهرت نفسك : تستطيع أن تقودها .. أما إذا أطلقت سراحها :أمرتك بالسوء.

خامساً : النفس نزَّاعة إلى الشهوات دومًا، مهما ارتقى المسلم في درجات الإيمان : فالنفس هي مجموعة الشهوات التي تهفو إليها نفسك؛ من حب الجاه والتملك والتميز والنساء والمال وكل ما تهواه النفس وتتمناه ، وقد يتحايل المرء ويصبغ شهوات نفسه بصبغة الشرع .. كالذي يُحب الشهرة ثمَّ أنعم الله عليه بنعمة الالتزام، فتظل تلك الشهوة بداخله وتجده يبحث عن الشهرة والتميز تحت مُسمى الدعوة وخدمة الإسلام ، والأصل أن عمله ليس لله، وإنما لأجل شهوة مُتمَلِكة من القلب .

*** *** ***

سادساً : الرضا عن النفس بداية ورود المهالك : لأن النفس ستظل دومًا هي النفس التي لا تأمر بخيرٍ قط؛ لذا من أقبح ما يكون أن ترضى عن نفسك .. كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن العُجب من المُهلكات، قال : (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) [41]. وقال الله تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) [النجم: 32] فستظل دائمًا أبدًا في جهادٍ مع نفسك حتى الموت .

سابعاً : يقول حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : (لقد جمعت في باطنك صفات منها صفات البهائم ، ومنها صفات السباع ، ومنها صفات الملائكة ؛ فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب عنك ، وعارية عندك فالواجب عليك أن تعرف هذا ، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة ؛ فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح ، فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج ، وسعادة السباع في الضرب والفتك ، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل ، فإن كنت منهم فاشتغل بأشغالهم ، وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية وليس للغضب والشهوة إليهم طريق ، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية ، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال ، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب) .

ويريد الغزالي بهذا أن يقرر أن النفس المسلمة هي التي تتصرف بقوتها ضد رغباتها ونداءات جسدها وغرائزها التي لا تنتهي لو ترك لها الحبل على الغارب ؛ فالنفس طُلَعَة .... كلما انتهت من أمر تطلعت إلى ما وراءه ، ولأن يكبح الإنسان جماحها خير له من أن توردە موارد الهلكة ، فتأسره بالغرائز ، وتستعبده بالشهوات .... يقول : (وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك، فما خلقك الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتى تكون أسراك وتسخرها للسفر الذي قدّامك، وتجعل إحداها مركبك والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك) .

وللعلامة ابن القيم كلاما شبيه بهذا في فوائده حيث قال رحمه الله : في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتوُّ عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغيُ قارون، وقحّة هامان -أي: لؤم-، وهوى بلعام - عرّاف أرسله ملك ليلعن بني إسرائيل فبارك ولم يلعن - وحِيَلُ أصحاب السبت، وتمرُّد الوليد، وجهل أبي جهل. وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشَرَهُ الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجُعْل، وعقوق الضبِّ، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصَولة

41- حسنه الألباني، السلسلة الصحيحة (1802)

الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفَّة الفراش، ونوم الضَّبع .

كما حكى ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله كلاما قريبا من هذا ، فقال: «سألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة - تهذيب النفس - وقطع الآفات؟ قال لي جملة كلام: النفس مثل الباطوس - وهو جبّ القاذورات - كلما نبش ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره – أي أن آفات النفس لا نهاية لها - ، فقلتُ: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، ولتكن همتك المسير، والإعراض عنها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا» [42].

*** *** ***

42- مدارج السالكين 313/2.

المبحث الثالث

أنواع النفس البشرية وصفات كل نوع

مدخل : النفس البشرية واحدة ولكن لها صفات متعددة .

المطلب الأول : النفس الأمارة بالسوء وصفاتها وعلاجها .

المحور الأول : حقيقة النفس الأمارة بالسوء .

المحور الثاني : من صفات النفس الأمارة بالسوء .

المحور الثالث : علاج النفس الأمارة بالسوء .

المحور الرابع : كيفية التعامل مع تلبيسات النفس الأمارة بالسوء .

المطلب الثاني : النفس اللوامة وصفاتها .

المطلب الثالث : النفس المطمئنة وصفات أهلها .

المحور الأول : معنى النفس المطمئنة .

المحور الثاني : صفات أصحاب النفوس المطمئنة .

مدخل

النفس البشرية واحدة ولكن لها صفات متعددة

قال الرازي :

المحققون قالوا : إن النفس الإنسانية شيء واحد ، ولها صفات كثيرة فإذا مالت إلى العالم الإلهي كانت نفسا مطمئنة ، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء ، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة ، والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها ، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه ، فذلك لا يحصل إلا نادرا في حق الواحد فالواحد ، وذلك الواحد فإنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الأوقات النادرة ، فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني ، وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادرا لا جرم حُكِمَ عليها بكونها أمارة بالسوء ، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية النطقية ، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية .

وقال ابن عجيبة رحمه الله :

النفس تارة تكون أمّارة، وتارة لوّامة، وتارة لهّامة، وتارة مطمئنة، وهي في الحقيقة نفس واحدة، تتطور وتتقلب من حال إلى حال، باعتبار التخلية والتحلية، والترقية والتردية فأصلها الروح، فلما تظلّمت سميت نفساً أمّارة ثم لوّامة، ثم لهّامة، ثم مطمئنة.

إذن فالنفس نفس واحدة؛ ولكن تتوارد عليها أحوال: أحيانًا ترتقي فتكون في أعلى مراتب الارتقاء، وأحيانًا تنحني فتصل إلى أدنى مراتب الانحناء، فهي تعلو أحيانًا وتقوى، وأحيانًا تضعف، وأحيانًا تسود وتقود، فالثبات الدائم ليس هو السمة الغالبة على النفس الإنسانية؛ ولكن لها أحوال.

وقد وقع الاختلاف بين الباحثين في حصر عدد هذه الأحوال التي وصف بها القرآن الكريم النفس الإنسانية، فمنهم من أوصلها إلى سبعة: "أمَّارة، ولوَّامة، ومطمئنة، وزكية، وحواذية أي تستحوذ على الإنسان فتدفعه إلى تكرار أنماط سلوكية وظالمية، ومجاهدة.

منهم من أوصلها إلى اثنتي عشرة حالة: النفس المطمئنة، واللوامة، والزكية، والمجادلة، والملهمة، والأمَّارة، والمهتدية، والمجاهدة، والشاكرة، والصالحة، والشحيحة، والخيرة؛ والظاهر أنه بهذه الطريقة يمكن أن تصل هذه الأنواع إلى أكثر من ذلك، إلى الحد الذي اعتبرت فيه كل صفة من صفات النفس نوعًا من أنواع النفس الإنسانية؛ لذلك ظهرت الحاجة إلى التمييز بين المستويات الأصلية التي تحدد أنواع النفس، والمستويات الفرعية التي تلحق بها، والمعيار لمعرفة المستويات الأصلية أنها لا تندمج في غيرها، وأنها تصف الحالة العامة للنفس بحيث تندرج تحتها جزيئات السلوك، وأنها تكون مذكورة في آية من آياتٍ.

وواضح أن وصف النفس بهذه الأوصاف لا يعني نفوسًا متعددة؛ بل هي أحوال تعتري كل نفس على تفاوت في غلبة حال منها أو آخر، واستقرار النفس على حال من تلك الأحوال لا يلغي طروء الأحوال الأخرى، ويشتق لها الاسم من الحالة الغالبة عليها في لحظة من اللحظات، أو فترة من الفترات، فيُقال نفس أمَّارة، أو لوَّامة، أو مطمئنة. [43]

وبناءً عليه اخترت أن يكون تفصيل الحديث عن هذه الأنواع الثلاثة المشهورة ، كل نوع في مطلب خاص :

*** *** ***

43- مقتبس من مقال : أنواع النفس البشرية - للشيخ صلاح بن سمير محمد مفتاح – شبكة الألوكة .

المطلب الأول

النفس الأمارة بالسوء وصفاتها وعلاجها

سنكشف في هذا المطلب عن حقيقة النفس الأمارة وبعض أبرز صفاتها وكيفية علاجها ليتسنى المسلم التعامل معها وذلك من خلال ثلاثة محاور.

المحور الأول : حقيقة النفس الأمارة بالسوء [44] :

هي تلك النفس التي تأمر صاحبها بكل سوء، من الشهوات الفائرة، والنزعات الجائرة، والحقد وغيره؛ فإن تساهل العبد معها، وأطاعها فيما تأمر وتنهي قادته لكل قبيح ومكروه؛ قال -تعالى- : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)[يوسف: 53]، فأخبر -سبحانه وتعالى- عن هذه النفس أنها أمارة؛ وذلك لكثرة ما تأمر بالسوء؛ ولأن ميلها للشهوات والملذات أصبح عادة فيها إلا إن رحمها الله -عزوجل- ويسر هدايتها، ووفقها.

هذه النفس ميَّالةٌ إلى طبيعة الإنسان البدنية، تأمر صاحبها باللذات والشهوات و اتباع الهوى، هي التي توسوس لفعل الشرور والاتصاف بالأخلاق الذميمة, وارتكاب الذنوب والآثام، وهي – كما قال ابن تيمية- أحد ثلاثة يستعاذ منها وهي: "النفس (الأمارة)، وشياطين الجن، وشياطين الإنسان"، وروي عن ابن جريج في تفسير قوله -تعالى-: (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)، قال: "هما وسواسان؛ فوسواس من الجنة وهو الخنّاس، ووسواس من نفس الإنسان".

ومما هو معلوم أن الشيطان وجنده من الكفرة يطلبان من النفس الأمارة مخالفة الشرع الرباني ، ولهذا كان أصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة فلو وصل منها عمل واحد لنجا به العبد، ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يدعا لها عملا واحدا يصل إلى الله، كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه " والله لو أعلم أن لى عملا واحدا وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله".

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " لو أعلم أن الله قبل منى سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلى من الموت ".

44- مقال النفس الأمارة بالسوء - الفريق العلمي - موقع ملتقى الخطباء - وكتاب تزكية النفس – للدكتور احمد فريد - بتصرف.

قال ابن القيم -رحمه الله – وهو يتحدث عنها ويصفها : وقد أخبر-سبحانه- أنها أمارة بالسوء، ولم يقل "آمرة" لكثرة ذلك منها، و أنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير؛ فذلك من رحمة الله لا منها؛ فإنها بذاتها أمارة بالسوء لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، إلا من رحمه الله، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها, فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم, فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة .

قلت : وهذا هو الابتلاء الذي من نجح فيه نجا ومن رسب فيه خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) سورة الملك (2) .

قال ابن عطية : كان أبي - رضي الله عنه - يقول في قوله أحسن عملا : أحسن العمل أخذ بحق و إنفاق في حق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه[45] .

*** *** ***

ويمكننا توضيح ذلك بما قاله بعض الباحثين بأسلوب علمي معاصر:

والمبدأ الذي يتحكم في سلوكها - يعني النفس الأمارة - هو" استقصاء اللذة (حسية أو معنوية) بأدنى كلفة ممكنة " ، وكقوة مهيمنة فهي تستولي على القلب وتوجهه نحو الارتباط بقيم مادية أو سياسية أو ثقافية لإشباع رغبتها واستقصاء لذتها. ولا يمكن التخفيف من حدة هذه النزعة إلا بالتربية الروحية التي تحول الرغبة في استقصاء اللذة الحسية أو المعنوية إلى " الحاجة إلى التوازن" .

إن النفس الأمارة بالسوء بحكم موقعها الهيمني، وفي غياب أي جهد لإضعاف نفوذها ، تفرض على القلب رغباتها على مضض منه. كما أن الفكر يصبح خديمها والناطق باسمها حيث يقوم بتبرير اختياراتها تبريرا "عقلانيا". وبذلك تصبح مفاهيم الفكر ك " الموضوعية " و"العقلانية " مفاهيم فارغة لأنها تبرر اختيارات سابقة للنفس الأمارة .

45- تفسير القرطبي لقوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) سورة الكهف (7) .

إلا أن النفس الأمارة، بالرغم من إشباع جميع رغباتها واستيفاء جميع مطالبها، تظل نهبا للشعور بالضنك الذي يخيم عليها بظله القاتم فاضحا بذلك عورات " الآلهة الجديدة " التي صاغتها النفس لنفسها .

و مما تجدر إليه الإشارة هنا هو أن النفس الأمارة بالسوء بإحلال حظوظها محل حقوق الربوبية التي هي نقيض هذه الحظوظ ، تريد أن تنصب نفسها إله محررا من كل القيود بالرغم من الأصفاد الموضوعية التي تكبلها (الموت، العجز، الجهل ...). فهي تريد أن تستولي على أوصاف الربوبية(الإشارة هنا في الحديث: العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته) لإشباع رغبتها في استقصاء لذتها الحسية (المتعة) والمعنوية (القوة) [46].

فائدة : العلاقة بين النفس الأمارة بالسوء والعقل :أن النفس الأمارة بالسوء تتأثر بالعقل، والعقل يتأثر بالمدركات الحسيَّة؛ كالنظر والسمع واللمس والشم .. وهذه المدركات تتجمع في العقل وتكوِّن الرغبة التي تصل إلى النفس الأمارة بالسوء فتبدأ بدفعك للوقوع في المنكرات .. كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى) [صحيح مسلم] .

فالقلب لم يقع في المعصية إلا بعد إثارة المقدمات الحسية .. كالذي يشاهد الأفلام وتظل تراوده الخواطر والأفكار السيئة حتى بعد أن يلتزم ويبتعد عنها؛ لأنه قد درَّب نفسه على السوء فتولدت منها نفسٌ خبيثة .. أما الأشياء التي لم تعاينها حسيًا فلن تُحَدثك نفسك بها؛ كالسرقة مثلاً.

والفرق بين تسويل النفس ووسوسة الشيطان .. أن النفس تظل تسول لك نفس جنس المعصية، أما الشيطان فهو لص الإيمان يحاول أن يوقعك في أي معصية أيًّ كانت حتى يشغلك عن طاعة الله [47].

*** *** ***

46- النفس الامارة - حسن بن أحمد – نفحات الطريق – بتصرف .

47- موقع الكلم الطيب .

المحور الثاني : من صفات النفس الأمارة بالسوء [48] :

إن للنفس الأمارة بالسوء صفات وعلامات، لابد على كل مؤمن حريص أن يعرفها ويدركها؛ فإن مسايرة النفس الأمارة في صفاتها، والتساهل معها في سلبياتها مؤشر على مرض القلب و انتكاسته.

فمن صفاتها : انغماسها في اللذات والشهوات الحسية، جاذبة للقلب إلى الجهة السفلية؛ آمرة بالشر تؤز صاحبها إليه أزاً.

ومن صفاتها : أن الشيطان قرينها وصاحبها، فحيث ما يكون فثم هي، كيف لا وهو الذي يعِدها ويمنيها، ويأمرها بالسوء ويزينه لها، ويريها الباطل في صورة الحق، ويطيل الأمل أمامها، ويمدها بالشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها، فينقلها من عز الطاعة إلى ذل المعصية.

ومن صفاتها : أنها تأمر صاحبها بالوقوع في المعصية، وترك الطاعة، وقد سمّاها القرآن أمّارة، ولم يسمها آمرة؛ فهي لا تكتفي بأمر أو أمرين في معصية الله, بل هي مداومة على الأمر بالمعصية.

ومن صفاتها : أنها متى ما قويت وأطاعت الشيطان وتحالفت معه أنزلا القلب من حصنه، وأخرجاه من مملكته؛ فإذا هو منغمس في اللذائذ المحرمة، مرتكس في الشهوات الموبقة، كما جاء وصف القلب المفتون في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَسْوَدُ مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ) رواه مسلم [49].

أي: كالكأس المائل أو المنكوس ، يسكب ما في داخله من الإيمان بقدر ميوله إلى الهوى، و انتكاسه عن الحق، كما يسكب الكأس ما فيه من ماء بقدر ميوله و انتكاسه.

48- خطبة بعنوان : النفس الأمارة بالسوء – ملتقى الخطباء .

49- هذا جزء من حديث وتمامه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فقالَ: أيُّكُمْ سَمِعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يَذْكُرُ الفِتَنَ؟ فقالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْناهُ، فقالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ في أهْلِهِ وجارِهِ؟ قالوا: أجَلْ، قالَ: تِلكَ تُكَفِّرُها الصَّلاةُ والصِّيامُ والصَّدَقَةُ، ولَكِنْ أيُّكُمْ سَمِعَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يَذْكُرُ الَّتي تَمُوجُ مَوْجَ البَحْرِ؟ قالَ حُذَيْفَةُ: فأسْكَتَ القَوْمُ، فَقُلتُ: أنا، قالَ: أنْتَ لِلَّهِ أبُوكَ. قالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: تُعْرَضُ الفِتَنُ على القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ) .

قال المنذري رحمه الله تعالى : "ومعنى الحديث: أن القلب إذا افتتن وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات خرج منه نورالإيمان؛ كما يخرج الماء من الكوزإذا مال و انتكس"[50].

ومن صفاتها : أنها تلح على صاحبها في الطلب، فلا تزال تردد وتعيد عليه حتى يعجزعن مقاومتها، فيقع في ما تريد من الشر والانفلات الأخلاقي، وتصبح هي القائدة التي تسوقه إلى ما تهوى من الشهوات المحرمة.

*** *** ***

هناك أسباب تجعل المرء ضعيفًا أمام نفسه، خانعًا أمام مطالبها، مذعنًا لها في شهواتها، لا يرد لها طلبًا حتى ولو كان فيه غضب الله ومقته.

ومن تلك الأسباب:

1- الاستهانة بمر اقبة الله -تعالى- له، والغفلة عن ذكره، والبعد عن تدبركتابه، والتأمل في آياته وعظيم خلقه،فكلما ضعف إيمان الإنسان كلما قويت نوازع الشر في نفسه.

2- تقديم هوى النّفس على محبّة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه؛ فقال -تعالى-: (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِهُدًى مِّنَ اللَّهِ)[القصص:50] .

3- التقاعس عن الطاعات، والنفورمن العبادات، والابتعاد عن القربات، والانشغال بالدنيا؛ فينغمس المرء انغماسًا في الدنيا بكليته، وحينها يتعثرفي الرجوع إلى نفسه الأمارة بالسوء ونهيها عن غيها، ويصعب عليه الإقلاع والابتعاد عما دعته إليه من الموبقات، فيستسلم لها استسلامًا كليًّا.

4- الفراغ : فالمرء حينما يكون فارغًا؛ لا في همِّ الدنيا، ولا في همِّ الآخرة، وهنا تجد فرصتها سانحة، فتعبث بلبه، وتؤزه إلى الحرام أزًّا؛ فتفسده وتهلكه، وكما قال الأول:

50- المفهم (1/ 360)، وشرح النووي (2/ 227) والترغيب والترهيب (3/ 186) عند شرح حديث رقم (3420) .

5- البيئة الفاسدة : فالنفس الأمارة بالسوء تعبث بصاحبها عندما يعيش في بيئة شحيحة بالإيمان، بعيدة عن التقوى، وحينما يتيه مع صحبة سيئة لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا؛ ففي هذه البيئة تستقوي النفس الأمارة على صاحبها، فتجده ضعيفًا هزيلًا أمام مطالبها، فتزيد من أوامرها، ويزيد هو في البعد عن الله .

*** *** ***

المحور الثالث : علاج النفس الأمارة بالسوء : عليك أيها المؤمن أن تكون قويًّا مع نفسك الأمارة، صارمًا في مواجهتها، متحديًّا لها، صابرًا على جهادها؛ حتى يستقيم لك أمرها، ويطيب لك حالها، وتمسك بزمامها، وتقودها من لجامها، وهناك فقط ستنعم بنفس راضية مطمئنة.

فمما يعين على علاج النفس الأمارة بالسوء ما يلي :

1- تذكر عظمة الله -عز وجل-، والإكثار من مراقبته في السر والعلن؛ كما في قوله -تعالى-: **(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)** [آل عمران: 135].

2- طلب العلم الشرعي : الذي أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، ورفع درجات أهله، وجعله الميراث الذي ورثه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فصاحب العلم محروس به عن الوقوع في شباك النفس ووساوسها.

3- الإكثار من العمل الصالح : فهو وظيفة الدنيا، وحسنة الآخرة، وهو حصن حصين، ودرع متين، كيف لا؟! وقد تكفل الله بالعناية بصاحبه حيث قال في الحديث القدسي: **(وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)** رواه البخاري .

4- الاعتراف بأن النفس ظالمة جاهلة : وكل عاقل يجب عليه أن يحارب الظلم والجهل ، **قال ابن القيم رحمه الله تعالى :** يعرف أنها -أي النفس- جاهلة ظالمة وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل

قول عمل قبيح، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله ألبتة فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم".

5- الصبر: لأنه لا نصر على النفس وعلى الأعداء إلا بالصبر، وهو خير ما يلجم النفس، ويحول بينها وبين ما تشتهي وتريد، يقول الله -تعالى-: (وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [العصر:1-3].

6- مجاهدة النفس : حتى تتروض على الطاعة وتستقيم على أمر الله، قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى : فجاهد النفس الأمارة بالسوء تمح صفات آفاتها حتى تصير لوامة ثم انقل اللوامة إلى مقام المطمئنة .

ورحم الله القائل :

ونفسك فازجرها عن الغي والخنا ولا تتبعها فهي أس المفاسد

وحاذرهواها ما استطعت فإنه يصد عن الطاعات غير المجاهد

وإن جهاد النفس حتم على الفتى وإن التقى حقا لخير المقاصد

فإن رمت أن تحظى بنيل سعادة وتعطى مقام السالكين الأماجد

فبادربتقوى الله واسلك سبيلها ولا تتبع غي الرجيم المعاند

*** *** ***

المحورالرابع : كيفية التعامل مع تلبيسات النفس الأمارة بالسوء :

قد تلبِّس النفس الأمارة بالسوء على العبد أموراً يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها بأمور يبغضها الله عز وجل، فلدقة الخيط أو الحد الفاصل بين هذين الأمرين لا ينجو من هذا التلبيس إلا أرباب البصائرذوو النفوس المطمئنة.

وقد عقد الإمام المحقق ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى فصولاً نافعة بين فيها هذه الدقائق النفيسة في كتابه (الروح) نجتزئ منها ما يلي [51] :

الفرق بين شرف النفس والتيه : فشرف النفس هو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التي تقطع أعناق الرجال فيرفع بنفسه عن أن يلقيها في ذلك بخلاف التيه فإنه خلق متولد بين أمرين: إعجابه بنفسه وازدرائه بغيره، فالشخص الذي يتيه عن الناس ويتكبر عليهم هذا الخلق ثمرة أمرين اثنين : أولاً يعجب بنفسه، ثم يزدري ويحتقر الآخرين، فيعجب بنفسه ويزدري غيره فيتولد بينهما المولود الجنين الذي ينشأ من التزاوج بين الإعجاب بالنفس وبين احتقار الآخرين وازدرائهم، وهو التيه على خلق الله سبحانه وتعالى.

أما شرف النفس فإنه يتولد من خلقين كريمين : الخلق الأول: إعزاز النفس و إكرامها، فهو يعز نفسه ويكرمها، والخلق الثاني: تعظيم مالكها وسيدها، فمن تعظيم مالكها وربها أن يكون عبده ذليلاً فيتولد من بين هذين الخلقين: شرف النفس وصيانتها.

وأصل هذا كله : استعداد النفس وتهيؤها، وإمداد وليها ومولاها لها، فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به -بهذا الثوب الغالي النفيس النقي الأبيض- فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع و أنواع الآثار إبقاءً على بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثيابه، وإن أصابه شيء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره.

وهكذا الصائن لقلبه ودينه، تراه يجتنب طبوع الذنوب و آثارها، فإن لها في القلب طبوعاً و آثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع، فتراه يهرب من مضان التلوث، ويختلي من الخلق، ويتباعد من مخالطتهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم .

51- علو الهمة [5] - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم – محاضرات مفرغة – إسلام ويب .

بخلاف صاحب العلو المتكبر فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد بالتحرز أن يعلو رقابهم، ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون، أما الكبر فإنه أثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلئ بالجهل والظلم، فرحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا معاملة الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهاً، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ عليه في الإنعام، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقاً، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعداً، ومن الناس إلى صغاراً أو بغضاً.

*** *** ***

والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه وتعالى ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها و آفاتها؛ فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة فهي الدناءة والخسة وبذل النفس و ابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حض لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه وتعالى يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة. قال صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) رواه مُسْلِمٌ.

في هذا الحديث فوائد كثيرة لكن أكتفي بفائدة مهمة تتعلق بالتواضع ذكرها بعض العلماء وهي : في هذا الحديث الحث على التواضع، والتواضع خلق كريم، من أخلاق المؤمنين، ويقال إنه الشيء الذي لا يحسد عليه أحد، هو التواضع، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من تواضع لله رفعه)، ومن تواضع يريد بذلك وجه الله جعل الله له الرفعة في الدنيا والآخرة.

لكن بعض الناس قد يرائي بالتواضع، فلا يتواضع لله، وإنما يتواضع لأجل أن يقال عنه إنه متواضع، فهذا ليس تواضعًا لله ولا ينال صاحبه الرفعة، إذًا: (من تواضع لله رفعه)، الرفعة هنا مشروطة بأن يكون التواضع لله، لاحظ أن الإخلاص مطلوب حتى في هذا الأمر[52].

*** *** ***

52- باب الترغيب في مكارم الأخلاق: شرح حديث (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا) – الموقع الرسمي للشيخ سعد الخثلان .

المطلب الثاني

النفس اللوامة ودورها في زجر صاحبها عن الخطايا

سنتعرض في هذا المطلب إلى تجلية معنى النفس اللوامة هو دورها في إصلاح صاحبها ورده إلى الصواب ، وذلك من خلال محورين :

المحور الأول : معنى النفس اللوامة : للعلماء أقوال عديدة حول مفهوم النفس اللوامة ، إليك بعضها [53] :

قال القرطبي رحمه الله تعالى : ومعنى : النفس اللوامة : هي نفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردت بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه ، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم .

قال الحسن رحمه الله تعالى : هي والله نفس المؤمن ، ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلامي ؟ ما أردت بأكلي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ والفاجر لا يحاسب نفسه .

53- قال الرازي : ذكروا في النفس اللوامة وجوها :

أحدها : قال ابن عباس : إن كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة أو فاجرة ، أما البرة فلأجل أنها لم تزد على طاعتها ، وأما الفاجرة فلأجل أنها لم تشتغل بالتقوى ، وطعن بعضهم في هذا الوجه من وجوه :

الأول : أن من يستحق الثواب لا يجوز أن يلوم نفسه على ترك الزيادة ، لأنه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره أن يلومها عليه .

الثاني : أن الإنسان إنما يلوم نفسه عند الضجارة وضيق القلب ، وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم في الجنة ، ولأن المكلف يعلم أنه لا مقدار من الطاعة إلا ويمكن الإتيان بما هو أزيد منه ، فلو كان ذلك موجبا للوم لامتنع الانفكاك عنه ، وما كان كذلك لا يكون مطلوب الحصول ، ولا يلام على ترك تحصيله . والجواب عن الكل : أن يحمل اللوم على تمني الزيادة ، وحينئذ تسقط هذه الأسئلة .

وثانيها : أن النفس اللوامة هي النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب أنها تركت التقوى .

ثالثها : أنها هي النفوس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة ، وعن الحسن أن المؤمن لا تراه إلا لائما نفسه ، وأما الجاهل فإنه يكون راضيا بما هو فيه من الأحوال الخسيسة .

ورابعها : أنها نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة .

وخامسها : المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها ، فإنها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصي ، ونظيره قوله تعالى : (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت) [الزمر: 56] .

وسادسها : أن الإنسان خلق ملولا ، فأي شيء طلبه إذا وجده مله ، فحينئذ يلوم نفسه على أني لم طلبته ، فلكثرة هذا العمل سمي بالنفس اللوامة ، ونظيره قوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) [المعارج : 19] واعلم أن قوله " لوامة " ينبئ عن التكرار والإعادة ، وكذا القول في لوام وعذاب وضرار.

وقال مجاهد رحمه الله تعالى : هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لا تستكثر منه .

وقال مقاتل : هي نفس الكافر يلوم نفسه ، ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله .

وقالت طائفة : هى التي لا تثبت على حال واحدة، فهى كثيرة التقلب والتلون، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتتقى.

ويقول الإمام ابن القيم : واللوامة نوعان: لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة.

اللوامة الملومة : هي النفس الجاهلة الظالمة، التي يلومها الله وملائكته.

اللوامة غير الملومة : وهى التي لاتزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله - مع بذله جهده - فهذه غير ملومة وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله، واحتملت ملام اللوام فى مرضاته، فلا تأخذها فى الله لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها، ولم تحتمل فى الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عزوجل.

وقال الطاهر ابن عاشور :

والمراد اللوامة في الدنيا لوماً تنشأ عنه التوبة والتقوى وليسَ المراد لوم الآخرة إذ (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) سورة الفجر (24) .

ومناسبة القسم بها مع يوم القيامة في قوله تعالى(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) سورة القيامة (1-2) أنها النفوس ذات الفوز في ذلك اليوم.

*** *** ***

المحور الثاني : دور النفس اللوامة في زجر صاحبها عن الخطايا [54] :

جاء في كتاب روح البيان في تفسير القرآن : اللوامة هي النفس الو اقعة بين الامارة والمطمئنة فلها وجهان :

54- روح البيان في تفسير القرآن – للعلامة إسماعيل حقي – تفسير سورة القيامة – الآية (2) .

وجه يلي النفس الأمارة : وهووجه الإسلام ؛ فاذا نظرَتْ - اللوامة - إلى الأمارة بهذا الوجه تلومها على ترك المتابعة - للرسول صلى الله عليه وسلم - والاقدام على المخالفة وتلوم أيضا نفسها على ما فات عنها في الايام الماضية من الاعمال والطاعات والمراتعة في المراتع الحيوانية الظلمانية.

ووجه يلى النفس المطمئنة : وهو وجه الايمان فاذا نظرت - اللوامة - بهذا الوجه الى المطمئنة وتنورت بنورانيتها وانصبغت بصبغتها تلوم ايضا نفسها على التقصيرات الواقعة منها والمحذورات الكائنة عليها فهي لا تزال لائمة لها قائمة على سوق لومها الى ان تتحقق بمقام الاطمئنان ولذلك استحقت أن يقسم الله تعالى بها.

وقال باحث [55] :

اللوم هو حالة وجدانية تحصل عند الانسان بعد احساسه بأنه قام بعملٍ خاطئ، وإذا ما تحرك هذا الاحساس والشعوربعد ارتكابه الذنب بحق الله أو بحق الناس، فإنه ينمّ عن وجود ضميرحي في داخله، هذا الضميريمثل المناعة المعنوية للنفس ضد الذنوب.

فكما أن لكل انسان مناعة في جسمه تقاوم الفيروسات المقتحمة لجسمه، وهو ما أكده علم الطب بأن الشخص قوي المناعة أقل عرضة للأمراض بينما الضعيف لا يقوى عليها، وقد يتعرض لمرض ما لا يستطيع الجسم مقاومته فيموت.

وكذا الحال بالنسبة للنفس الانسانية فالشخص مخلوق وفي داخله فطرة الضمير التي تُعد نعمة من الله تعالى، وتبقى هذه الفطرة التي هي كالمناعة المعنوية ضد الذنوب، فإذا داوم الانسان على مشارطة نفسه وعلى عدم الاقتراب من الذنوب ومحاسبتها، فان شعلة الضمير ستبقى متوهجة.

وهذا ما يعطينا معنى (النفس اللوّامة) وهي النفس التي تمتلك تلك المناعة المعنوية او قل الضميرالحي، فإذا اراد أن يقدم الانسان على ذنب بتسويل من النفس، تنبه العقل لذلك ونبه النفس منه ولكن إذا اصرّوعمل ذنباً، يأتي هنا دورالضميرويؤنب صاحبه لتكون بداية التوبة وهذه الحالة إذا استمرت عند الانسان بحيث بعد أن يندم يعزم بصدق على عد الرجوع الى

55- ومقال : (النفس اللّوامة) و القسم بها في القرآن الكريم للكاتب ضياء الشيخ – موقع أقلام .

الذنب سوف تقوى مناعته المعنوية بحجم مر اقبته لنفسه ومحاسبته لها فيصل الى درجة أن لا يقرب ذلك الذنب وهي درجة النفس المطمئنة .

أما إذا ارتكب الفرد ذنباً ولم يحاسب نفسه ولم يعاتبها، فإن شعلة الضمير ستخبو وهجتها في نفسه شيئاً فشيئاً، حتى تنطفئ فيضحى الضمير ميتاً، ولا يأبه بما يرتكب صاحبه من أعمال مهما كانت كبيرة من خطايا بحق الله تعالى أو بحق الناس، بل ربما يصل به التسافل ليتحول من النفس اللوّامة الى الأمّارة بالسوء والى المزيّنة التي تزين اخطاءه له وتبرر اعماله فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً.

كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : النفس السعيدة هي التي تلوم نفسها والنفس الشقية بالضد من ذلك .

*** *** ***

فائدة : علاقة النفس اللوامة بالعقل :

سبق وأن ذكرنا العلاقة بين النفس الأمارة والعقل، وكذلك اللوامة لها علاقة بالعقل لكن العلاقة بينهما أقوى من العلاقة بين العقل والنفس الأمارة بالسوء، فتأثُّر العقل بالمدركات الحسية يكون أقل من تأثره في حالة النفس الأمارة بالسوء؛ لأنه إلى جانب المعاصي التي رأتها عيناه وأدركتها بقية حواسه فإنه قد قام ببعض الأعمال الصالحة من تلاوة قرآن واستماع للمواعظ .. فصارلدى عقل جانبان؛ جانب يدعوه إلى الخيروتقوى الله، وآخريدعوه إلى الشر بالوقوع في المعصية.

وتظل النفس اللوامة تلومه على أفعاله السيئة .. فإن استجاب لتأنيب ضميره وأصْلَح من نفسه، كانت نفسه أقرب إلى النفس المطمئنة منها إلى النفس الخبيثة .. أما إن تركها لتغرق، عادت النفس من مرحلة النفس اللوامة إلى مرحلة النفس الأمارة بالسوء [56].

*** *** ***

56- موقع الكلم الطيب .

المطلب الثالث

النفس المطمئنة وصفات أهلها

إذا سكنت النفس إلى الله عزوجل واطمأنت بذكره، و أنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، و أنست بقربه، فهى مطمئنة، وهى التى يقال لها عند الوفاة ما قال تعالى : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) (الفجر: 27 - 28).

ومن هنا سنكشف عن حقيقة النفس المطمئنة وصفات أهلها وذلك من خلال ثلاثة محاور:

المحور الأول : معنى النفس المطمئنة :

تكلم السلف والخلف في معناها وذلك لأنها مذكورة في كتاب الله تعالى وإليك بعض أقوالهم :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : المطمئنة المصدقة ، وعنه - أيضاً - المطمئنة بثواب الله .

وقال قتادة رحمه الله: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله، وصاحبها يطمئن فى باب معرفة أسمائه وصفاته إلى خبره الذى أخبر عن نفسه وأخبر به عند رسوله صلى الله عليه وسلم ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا، ثم يطمئن إلى قدر الله عزوجل فيسلم له ويرضى ن فلا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه، وقبل أن يخلق، قال تعالى:(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِۗوَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) (التغابن: من الآية 11).

وقال الحسن البصري رحمه الله : المطمئنة : المؤمنة الموقنة . **وعن مجاهد رحمه الله :** الراضية بقضاء الله ، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها .

وقال مقاتل رحمه الله : الآمنة من عذاب الله ، وفي قراءة أبي بن كعب (يأيتها النفس الآمنة المطمئنة) وهي قراءة تفسيرية.

وقيل : التي عملت على يقين بما وعد الله في كتابه .

وقال ابن كيسان : المطمئنة هنا : المخلصة .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين . وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى بيانه (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ) سورة الرعد (28).

*** *** ***

المحور الثاني : درجات الاطمئنان :

ذكر بعض الباحثين أن الاطمئنان النفسي ليس واحداً بل على أنواع :

1- طمأنينة الإحسان : فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصا ونصحا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى، ولا تقليدا، ولا يساكن شبهة تعارض خبره، ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التي لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبى - صلى الله عليه وسلم -: (صريح الإيمان) رواه مسلم[57] ، وكذلك يطمئن من قلق المعصية، و انزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها .

2-الاطمئنان من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة.

3- الاطمئنان إلى ما يجب عليه تجاه ربه جل وعلا : وهو ما يسمى باليقظة، التى كشفت عن قلبه سنة الغفلة وأضاءت له قصور الجنة، فصاح قائلا:

ألا يا نفس ويحك ساعديني بسعى منك فى ظلم الليالى

لعلك فى القيامة أن تفوزى بطيب العيش فى تلك العلالى

فرأى فى ضوء هذه اليقظة ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وقلة وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض

57- والحديث بتمامه عن أبى هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - فسألوه، إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: " وقد وجدموه؟ قالوا: نعم، قال: " ذاك صريح الإيمان". وروى مسلم كذلك عن ابن مسعود قال: سئل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الوسوسة قال: " تلك محض الإيمان " قال النووي : استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلا عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالا محققا و انتفت عنه الريبة والشك - شرح النووى على صحيح مسلم (2/ 154).

فى ذلك الضوء على ساق عزمه قائلا: {يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله} (الزمر: من الآية 56).

فاستقبل بقية عمره مستدركا ما فات، محييا ما مات، مستقبلا ما تقدم له من العثرات، منتهزا فرصة الإمكان التى إن فاتت فاته جميع الخيرات، ثم يلحظ فى نورتلك اليقظة وفورنعمة ربه عليه، ويرى أنه آيس من حصرها وإحصائها، عاجزعن آداء حقها.

4- اطمئنان اليقظة إلى عيوب نفسه، و آفات عمله، وما تقدم له من الجنايات والإساءات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فتنكسر نفسه وتخشع جوارجه، ويسير إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه، ومطالعة جناياته، وعيوب نفسه،

5- اطمئنان اليقظة إلى عزة وقته، وخطره، و أنه رأس مال سعادته فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة، وفى حفظه الربح والسعادة.

فهذه آثار اليقظة وموجباتها، وهى أول منازل النفس المطمئنة التى ينشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة.

*** *** ***

المحورالثالث : صفات أصحاب النفوس المطمئنة [58]:

لا شك أن كل قارئ لماسبق عن النفس المطمئنة يكون قد أنها متصفة بالصفات الحميدة ظاهرا وباطنا وأنها قائمة بأعمال البروالخير ، لأنها قرينها المَلَكُ، يليها، ويسددها، ويقذف فيها الحق، ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه، ويريها قبح صورته، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من عند النفس المطمئنة، فالنفس المطمئنة والملك يقتضيان من النفس المطمئنة: التوحيد والإخلاص والإحسان والبروالتقوى، والتوكل والتوبة، والإنابة والإقبال على الله، وقصر الأمل، والإستعداد للموت وما بعده. تلك صفاتها وإليك تفصيل بعضها:

58- مقال النفس المطمئنة - الفريق العلمي - موقع ملتقى الخطباء - وكتاب تزكية النفس – للدكتوراحمد فريد – بتصرف وزيادات .

الصفة الأولى: الإخلاص : وهو كما قال العز بن عبد السلام -رحمه الله-: "أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد بها تعظيماً من الناس ولا توقيراً، ولا جلب نفع ديني، ولا دفع ضرر دنيوي".

وللإخلاص علامات ابحث عنها في نفسك لتعلم أأنت مخلصٌ أم لا، وهي:

1- أن يكون في عناية الله تعالى ومعيته .. أي إنه ليس كثير التعثُّر وأحواله ليست مضطربة أو متباينة، كما قال ابن الجوزي ".. إنما يتعثر من لم يخلص" [59].

2- بذل المجهود في الطاعة لتكون على أكمل وجه على قدر الاستطاعة مع عدم الشعور بالملل أو الضجر في النفس.

3- أن يكون حريصًا على إسرار الأعمال عند فعلها وعدم التكلم بها بعد فعلها ، ولو بمدة طويلة ، هناك من يتكلم بأعماله الصالحة فيقع في السمعة وهي كالرياء ، ومما هو معلوم أن هناك من الأعمال ما ينبغي إظهاره، مثل: الصلاة في الجماعة والدعوة والجهاد.

4- الحرص الشديد على إصلاح العمل و إتقانه وإحسانه .. لأنه يعيش لله لا لنفسه، فكل ما يفعله يبذله لوجه الله تعالي.

5- وجل القلب وخوفه من عدم القبول قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) سورة المؤمنون (60-61) .

فقلوبهم خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

قال الحسن البصري رحمه الله : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم . وقال أيضا : لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها[60] .

الصفة الثانية : المتابعة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم : فصاحب النفس المطمئنة يتبع النبي حذو القُذة بالقُذة، حتى تطغى محبته للنبي صلى الله عليه وسلم على حب المال والولد وحتى

59- صيد الخاطر – ص(119) .

60- تفسير القرطبي والسعدي .

النفس .. عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [متفق عليه] وعلامة الإتبـاع:: شدة الحرص على معرفة سُنَّتِهِ وأحواله وسيرته، والإقتداء به.

الصفة الثالثة : الرضا عن الله تعالى : فعندما يذوق طعم الإيمان يمر عليه البلاء وهو مطمئنٌ ساكنٌ هاديء .. عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا) [رواه مسلم]

الصفة الرابعة: شدة محبة الله تعالى وتعظيمه..

فقد صُبِغَت حياته بصبغة جميلة من حسن الظن بالله تعالى، إذا ابتلاه يصبرويرضى وإذا أنعَمَ عليه يشكره ربّه ويحمده على نِعَمِهِ .. فهو سبحانه ربٌّ ودودٌ يتودد إلى عباده الصالحين، قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: 96]

وعلامات محبتك لله تعالى هي:

1- الأنس بالله تعالى في الخلوة.
2- التلذذ بتلاوة كلام الله .
3- كثرة اللهج بذكر الله.
4- موافقة العبد ربَّه فيما يُحب ويكره.

الصفة الخامسة: الصدق : ولن ينفعك في التعامل مع الله سوى الصدق، والصدق هو ما يجعلك تعيش مطمئنًا ،عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة) (رواه أحمد وصححه الألباني، مشكاة المصابيح- 2773)

وللصدق أنـواع، هي:

1- الصدق مع الله تعالى، ويكون .. صدقًا في الأقوال؛ فلا ينطق لسانك إلا صدقًا .. وصدقًا في الأحوال؛ فلا تراوغ ولا تتلوَّن .. وصدقًا في الأعمال؛ بأن تكون مُخلصًا لله تعالى مُتبعًا لهدي النبي في أعمالك.

2- الصدق مع النفس .. بأن يكون بينه وبين نفسه مصالحة فيما يعتقده وما يفعله .. وأن ينصح نفسه؛ حتى لا تميل مع الشهوات وتركن إليها .. فيُحاسب نفسه قائلاً:

يا نفسُ، أخلصي تتخلصي ... واصدقي تصلي إلى شواطيء الطمأنينة وتبتعدي عن الريب والشكوك،،

3- الصدق مع الناس .. فلا يظهر أمام الناس بوجه مُختلف عن الوجه الذي بينه وبين الله تعالى.

الصفة السادسة : التقوى، وهي علامة عظيمة من علامات النفس المطمئنة، قال الله -سبحانه وتعالى-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)؛ وتقوى الله أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، قال الشاعر:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

*** *** ***

فائدتان :

الفائدة الأولى : كيفية الوصول إلى النفس المطمئنة :

إن الإنسان إذا وصل إلى مرحلة النفس المطمئنة لن يكون بمعزلٍ عن الخطايا؛ لأن كل بني آدم يعتريهم النقص والخطأ .. إنما إذا سعيت للتحلي بصفات أصحاب النفس المطمئنة، ستنال الاطمئنان النفسي في الدنيا والراحة الأبدية في الآخر.

الفائدة الثانية : فيما سبق تحدثنا عن الأنفس الثلاثة - النفس الأمّارة بالسوء والنفس اللوامة النفس المطئمنة، ، ورأيت من المناسب ذكر بقية الأنفس السبعة وهي : النفس المرضية والنفس الملهمة والنفس الراضية والنفس الكاملة.

1- النفس الملهمة، هي النفس التي اهتدت للخير والشر، فعرفت الصواب من الخطأ، ولكنها خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وفيها قال الله سبحانه: (ونفس وما سواها، فألهمها فجورها

وتقواها)، وصاحب هذه النفس تارة يقوم بعمل الخير وتارة يقوم بعمل الشر، فهو بين حسنة وسيئة، فتارة يقرب وتارة يبعد، وهذا الصنف يجب أن يحذر من صحبة أهل السوء والضلال؛ لأنهم يمكن أن يضلوه فينزل إلى النفس التي دون هذه النفس..

2- النفس الراضية، هي النفس التي استقرّ النور فيها، وأخذت ترقى في شعب الإيمان، وتكتسب صفات حسنة جديدة علوية، كالصبر والرجاء والخوف والتوكل والرضا، وعلت رغبتها وهمّتها فأصبحت تتوجه إلى الله سبحانه، فإن صاحب النفس المطمئنة كان يعمل الخير لأجل الخير، ويعمل الحسنات لأجل الحسنات، ويغترف من النور حباً في النور، أمّا صاحب النفس الراضية فهو يعمل الخير إرضاءً لله، ويفعل الحسنات تقرباً إلى الله، وهكذا، فهو قد بدأ يتوجه إلى الله، وهنا يبدأ السلوك إلى الله سبحانه، فإنه قبل ذلك لم يكن يستحق أن يُسمّى سالكاً إلى الله.. يقول الله سبحانه عن هذه النفس: (ارجعي إلى ربك راضية)، فأشار سبحانه أنه هنا تبدأ النفس بالرجوع إلى الله .

3- النفس المرضيّة، هي النفس التي انتقلت من عالم المُحبّ إلى عالم المحبوب، فهنا يبدأ صاحب هذه النفس في توارد اللطائف عليه من الله سبحانه، وأحوال المحبة والعشق والشوق، وهكذا.. ويبدأ صاحب هذا النفس في تذوّق أنوار التوحيد، وتشرق عليه الفتوحات الربانية، والفيوضات الوهبية، يقول تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) سورة الفجر (27- 28) ، فقد أرضاها بعد أن سعت في رضاه، وأرادها لمّا أرادته سبحانه، وهنا تبدأ أنوار العبودية تشرق في قلب صاحبها، وتسقط الآن صفات النفس لتظهر بوادر المعرفة.

4- النفس الكاملة، هي النفس التي كملت حقيقتها، واستقرّت فيها أنوار القرب من الله تعالى، وعرفت الله حقّ المعرفة، وذلّت له، وخضعت لعظمته، وخشعت لجلاله، والتجأت إلى جنابه، وخفضت جناحها لهيبته، وسجدت لكبريائه وعزّته.. فصاحب هذه النفس هو العارف بالله، وهنا ترقيات إلى ما لا نهاية.

*** *** ***

المبحث الرابع

مفهوم تزكية النفس وأهميتها ووسائلها وفوائدها

مدخل : علاقة النفس بالجسد ودور الشرع في التزكية .

المطلب الأول : مفهوم تزكية النفس وأهميتها .

المطلب الثاني : وسائل تزكية النفس .

المطلب الثالث : فوائد وثمار تزكية النفس .

المطلب الرابع : صور من تزكية النفس في حياة السلف وغيرهم .

مدخل

علاقة النفس بالجسد ودور الشرع في التزكية

من أوضح ما قرأت في وصف العلاقة بين الجسم والنفس ما كتبه العلامة الساحلي[61] حيث قال رحمه الله :

" وجعل – الله – بين النفس والجسم تعلقا عجيبا وارتباطا غريبا لولاه لم يستقر قرارها فيه للمضادة التي بينهما ، وبذلك الارتباط والتعلق تحلت النفس من كثافة الجسم بأوصاف ، وتحلى الجسم أيضا من لطافة النفس بأوصاف .

لكن النفس أشد انفعالا لمقتضيات الجسم و أكثر اتصافاً بأوصافه لبعدها عن عالمها وقربها من عالمه .

والطبع يسرق من الطبع القريب المجاور ، فكلما مال الجسم لمقتضى النفس جذبه عن ذلك طبع عالمه القريب فضعف الميل، وكلما مالت النفس لمقتضى الجسم لم تجد وازعاً عن ذلك من عالمها ؛ لبعدها عنه فاتصفت بأوصاف الجسم وتلوثت بأدران مقتضياته حتى أخرجها ذلك عن طبعها ، ونزع عنها أثواب طهارتها ولوَّثها بأدران الشهوات ، وأمرضها بعلل الآفات حتى صار لها من ذلك أعظم حجاب عن خالِقِها ، و أكبر قاطع عن عالمها فهي مع مرور الأزمان والأنفاس تكثر عللها فيعظم حجابها [62] .

ومن هنا نعلم : (كم هي خطيرة تلك النفس لما لها من تأثير على حياة الإنسان ومصيره في الآخرة، فقد اتفق علماء السلف على أن النفس قاطع وحاجز بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنها لا تستطيع أن تصل إلى مرضاة الله عزوجل والنجاة يوم القيامة إلا بعد تهذيبها والسيطرة عليها، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: 7 - 10] .

61/ هو العلامة محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي المالقي، خطيب المسجد الأعظم بمالقة. ووفاته فيها. كان جهوري الصوت، وقورا. من كتبه (شعب الايمان) و (النفحة القدسية) و (بغية السالك إلى أشرف المسالك) توفي سنة (754) (نقلا عن الدرر الكامنة - للحافظ ابن حجر العسقلاني - (٤: ٢٤٠). والأعلام - خير الدين الزركلي – (36/7)).

62/ بغية السالك في أشرف المسالك - للعلامة : محمد بن محمد بن أحمد الساحلي (ت: 754) – تحقيق أحمد فريد المزيدي – طبعة ناشرون – لبنان – ص (15-16) – باختصار.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ﴾ سورة آل عمران (30) .

كم هي خطيرة تلك النفس؛ لأن نتيجة صلاحها وفسادها لا يؤثر على حياة الفرد ومصيره فحسب، بل يؤثر على الأمة جمعاء، وصلاح الأمة مبداه من صلاح نفسك أيها الأخ المبارك: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ سورة الرعد (17) .

وقدأنزل الله الشرع الحنيف لإصلاح البدن والعقل والروح [63] : فالإنسان مخلوق من ثلاثة عناصر، هي: العقل والبدن والروح. وأشرف هذه العناصر الثلاثة الروح التي هي نفخة غيبية من عند الله (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) سورة الإسراء (85) .

وقد رتب الله على هذه العناصر الثلاثة عناصر الدين فجعل الإسلام لإصلاح البدن، والإيمان لإصلاح العقل، والإحسان لإصلاح الروح، وجعل التكامل بين هذه العناصر والتوازن بينها مطلوب ، فلا يكون الإنسان سوياً مستقيماً إلا بالاعتدال والتوازن بين هذه العناصر.

فلا بد من العناية بها جميعاً والسير بها في خط متوازٍ، حتى لا يحصل ميل أو اعوجاج في هذه النفس البشرية، فإن مَنْ مال إلى أحد هذه العناصر دون غيره وأولاه عناية على حساب الجوانب الأخرى كان إنساناً معوجاً غير مستقيم.

وأهم هذه الجوانب وأشدها خطراً هو عنصر الإحسان الذي لا يكمل إيمان المسلم إلا به، وعنصر الإحسان إنما يتعلق بتزكية النفوس.

ولذا : نحن في أَمَسّ الحاجة إلى بناء أنفسنا، ولأننا نريد أن نبني غيرنا، ومن عجز عن بناء نفسه فهو عن بناء غيره أعجز،وما لم يشتغل الإنسان بتزكية نفسه فلن يفلح أبداً .

*** *** ***

63/ الكلام للشيخ العلامة محمد الحسن الددو– نقلا عن مقال : تزكية النفس – للأستاذ :سيد محمد بن جدو– موقع صيد الفوائد .

المطلب الأول

مفهوم تزكية النفس وأهميتها

إن إصلاح النفوس والعمل على تزكيتها بالإيمان والعمل الصالح ،وتنقيتها من أدران الشرك والمعاصي ،والارتقاء بها في مدارج الكمال الإيماني ، وسُلَّم السمو الأخلاقي والسلوكي من أهم ما ينبغي أن يسعى إلى تحقيقه المربون، وينتبه إلى أهميته المصلحون. خاصة والمسلمون عامة، وهذا ما سنعالجه في هذا المبحث بعون الله تعالى بعد توضيح مفهوم التزكية وأهميته .

المحور الأول : مفهوم تزكية النفس في اللغة والاصطلاح :

في اللغة : تزكية النفس تعني : طهارتها من الصفات المذمومة والأخلاق السيئة ، كما يعني ذلك نماء الصفات الطيبة فيها وإظهار محاسنها.

واصطلاحاً : التزكية كلمة قرآنية، تعني السعي إلى تطهير النفس من الشوائب التي قلّما تنفك منها، والتي إن بقيت عالقةً بها تورد صاحبها المهالك، وتحيل إيمانه بالله إلى مظهر لا حقيقة له ولا فائدة منه، وأخطر هذه الشوائب الكبر، ثم العجب والحقد وحب الدنيا ومظاهرها من المال والجاه والرئاسة .. إلخ.

يقول حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقَتْ أمَّارةً بالسوء مبالِغةً في الشر فرَّارةً من الخير، وأُمرتَ بتزكيتها وتقويمِها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك [64].

وقال الساحلي رحمه الله تعالى : والعبد مطلوب بخلاص نفسه من عللها وطهارتها من أدرانها وخرق حجابها عن خالقها حتى يصح مزاجها ويعتدل .

ولذلك هلك مَنْ سلَّم لها النظر من غير تشرُّع - أي دون عمل بالشرع الحنيف - فبعث الله رسله صلوات الله وسلامه عليهم هداة للعقول إلى ما فيه خلاص الأنفس من رق شهواتها و إنقاذها من أسر غفلتها ، وتطهيرها من دنس سيئاتها ، وإخراجها من الظلمات إلى النور بطرق سهلة

64/ إحياء علوم الدين - تأليف حجة الإسلام الغزالي - (4/ 382) .

ومآخذ هيّنة بوحي من الله تعالى فجاءوا - يعني الرسل عليهم السلام - من عنده بوظائف العبادات وشرائع الدي وفنون التكليفات منها ما يختص بالباطن ومنها ما يختص بالظاهر[65] .

*** *** ***

المحور الثاني : أهمية تزكية النفس :

ما لم يشتغل الإنسان بتزكية نفسه فلن يفلح أبداً، أقسم اللهُ على هذا، والله تعالى عندما يقسم قسماً إنما يفعل ذلك لأمر عظيم وخطير جداً، قال تعالى مقسماً بسبع آيات كونية: الشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض والنفس، على أهمية تزكية النفس، وكونها سببا أساسا لفلاح الإنسان. ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) سورة الشمس (1-8). ثم أجاب سبحانه بعد هذه الأقسام بقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[66] .

وقد أضحت البشرية في أمس الحاجة إليها في هذا العصر بالذات لعدة أسباب،منها :

أولاً : إن نظرة خاطفة متعمقة لحال المسلمين اليوم يمكن من خلالها إدراك مدى الحاجة العظيمة والماسّة إلى إعادة تربية وتزكية وبناء أنفسنا، وتأسيسها على تقوى من الله ورضوان، وأن الحاجة إلى ذلك أصبحت – وهي دوماً – أشد من الحاجة إلى الطعام والشراب والكساء. وذلك لكثرة الفتن والمغريات وأصناف الشهوات والشبهات وتسلط الطغاة، ولكثرة حوادث النكوص على الأعقاب، والانتكاس، والارتكاس حتى بين بعض العاملين للإسلام، مما يحملنا على الخوف من أمثال تلك المصائر.

ثانياً : المسؤولية التي يواجهها الإنسان ذاتية والتبعة فردية والإنسان يحاسَب عن نفسه لا عن غيره فلا بد من جواب واستعداد ، قال تعالى :﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نفْسِهَا﴾ .

65/ بغية السالك في أشرف المسالك - الساحلي – ص (16).

66- قال أحد الباحثين : يأتي السؤال عن مناسبة ذكر الإنسان وهو الجرم والمخلوق الصغير بعد ذكر هذه الأجرام والمخلوقات العظام كالشمس والقمر والسماء والأرض؟

إن ذلك يأتي ليذكر هذا الإنسان أن كل ما حولك في هذا الكون الذي تألفه وتراه كل يوم هو مسخر بأمر الله، خاضع لعظمته وقدرته، فيكون من الأولى بك أيها الإنسان أن تخضع لربّك كما خضع له هذا الكون الفسيح، وأن تسجد له وتسبّح بحمده، كما تفعل سائر المخلوقات، وأن لا تكون نشازاً في هذا النسق الموحد لهذا الكون.

وما لم يشتغل الإنسان بتزكية نفسه فلن يفلح أبداً، أقسم اللهُ على هذا، والله تعالى عندما يقسم قسماً إنما يفعل ذلك لأمر عظيم وخطير جداً، قال تعالى مقسماً بسبع آيات كونية: الشمس والقمروالليل والنهاروالسماء والأرض والنفس، على أهمية تزكية النفس، وكونها سببا أساسا لفلاح الإنسان كما سبق بيانه ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها) كما دعا صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا)، ودعا أيضا (اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها) . [67]

*** *** ***

ثالثاً : ثمة علامات ينبغي للمسلم التنبه لها إذا هي ظهرت عليه دل ذلك على ضرورة مسارعته لتزكية نفسه وتطهيرها، ذلك أن الفلاح -كما تقدم- مرتبطٌ بالمبادرة إلى تزكية النفس.

من هذه العلامات الاستهانة بالمعاصي بشتى أنواعها الصغير منها أو الكبير... إنها تلك المشاعر المهينة التي تختلج في نفس العاصي عند ارتكاب المعصية وبعد انتهائه منها، حتى لو كانت تلك المعصية من الصغائر، لأن الاستهانة بالمعصية بحجة أنها من الصغائر مؤشر خطر... فالمؤمن الصحيح القلب يخاف من كل معصية حتى لو كانت صغيرة، بل حتى لو كان فاعلا لها ومقيما عليها، تجد نفسه تلقائياً تنشغل بالتفكير في عواقب تلك المعصية بين الحين والآخر، وتحس بالندم والحياء من الله، وتجده يدعو ربه أن يخلصه من تلك المعصية ويأخذ بيده إلى التوبة النصوح .

رابعاً : من علامات الحاجة إلى تزكية النفس الكسلُ عن بعض الطاعات، فقدان لذة العبادة وحلاوة الإيمان... تفسق النفس وتهمل وتستثقل العبادة عندما تفتر عن الطاعات شيئاً فشيئاً، فمثلا: لا تجد في النفس الدافع إلى الاستيقاظ لصلاة الفجر لأدائها مع الجماعة لأنها تكون صلاة ثقيلة جداً على صاحبها والنوم ألذ منها بكثير، والفراش لا يقاوم، والدفء! ولهذا **قال تعالى:** ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِوَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:45].

67- خطبة عن (تزكية النفوس) (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ) – موقع خطب حامد إبراهيم ، ومقال النفس الانسانية في القران الكريم - للدكتورعادل عمر - مركزمقديشو البحوث والدراسات .

بل قد لا تحتمل النفس ما هو أقل من ذلك، كالصبر على البقاء في المسجد لسماع موعظة ما مثلا، أو أداء السنن الراتبة، أو تلاوة أذكار المساء والصباح، ونحو ذلك؛ لثقلها على النفس، أو لعدم استشعار اللذة في أدائها، أضف إلى ذلك اشتغال النفس ذاتها بما هو ألذ عندها من تلك الطاعات بكثير، وهي أمور الدنيا، فينبغي لمن من وجد في نفسه هذا الثقل أن يسارع إلى تزكية نفسه .

خامساً : من علامات الحاجة إلى تزكية النفس استمراء خصالها المذمومة، كالكبر والحقد والحسد والغرور، وكذلك الفضول المذموم: كثرة الكلام، كثرة الضحك، كثرة الحديث حول الناس وما يلازم ذلك من الغيبة، كثرة النوم، كثرة الخوض في أمور الدنيا، في أمور الدرهم والدينار، ونحو ذلك. فالله المستعان!

*** *** ***

سادساً : أن النفس من أشد أعداء الإنسان الداخليين لأنها تدعو إلى الطغيان و إيثار الحياة الدنيا، وسائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانبها، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شرها كثيراً .

قال ابن القيم رحمه الله : (وقد اتفق السالكون على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، و أنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها والظفر بها).

سابعاً : أن الإنسان محب للكمال فينبغي له أن يعمل على إكمال نفسه بتزكيتها وتربيتها، فهذه النفس تصاب بالأعراض التي تصاب بها الأبدان، فهي محتاجة إلى تغذية دائمة ومحتاجة إلى رعاية، ومحتاجة كذلك إلى متابعة للازدياد من الخير كما يزداد البدن من الطاقات والمعارف،

ثامناً : كثرة الفتن والمغريات وأصناف الشهوات والشبهات؛ فحاجة المسلم الآن -لا ريب- إلى البناء أعظم من حالة أخيه أيام السلف، والجهد -بالطبع- لابد أن يكون أكبر؛ لفساد الزمان والإخوان، وضعف المعين، وقلة الناصر.

تاسعاً : لكثرة حوادث النكوص على الأعقاب، والانتكاس، والارتكاس حتى بين بعض العاملين للإسلام، مما يحملنا على الخوف من أمثال تلك المصائر.

*** *** ***

المطلب الثاني

عشر خطوات موصلة إلى تزكية النفس

بداية مما هو معلوم أن موضوع تزكية النفس قد أُلِّفَتْ فيه المؤلفات المتنوعة المشارب والمتعددة المناهج ، ولكل وجهته وطريقته فلما كان الأمر كذلك أحببت أن ألخص ذلك في عشر خطوات واضحة المعالم جلية المعاني معينة بإذن الله تعالى على الوصول إلى المطلوب [68]:

ومما هو معلوم أيضاً أن تزكية النفس تنقسم إلى قسمين رئيسين هما: التخلية، والتحلية.

فالتخلية : يقصد بها تطهير النفس من أمراضها وأخلاقها الرذيلة.

وأما التحلية : فهي ملؤها بالأخلاق الفاضلة وإحلالها محل الأخلاق الرذيلة بعد أن خليت منها.

ولهذا قسمت هذه الخطوات العشر إلى قسمين : الأول : خمس خطوات في سبيل التخلية ، والآخر : خمس خطوات في سبيل التحلية .

فبذلك يتمكن العبد بعون الله تعالى من الوصول إلى تزكية النفس باتباعه لتلك الخطوات [69]:

القسم الأول : خمس خطوات في سبيل التخلية :

الخطوة الأولى : الاعتراف بعيوب النفس :

إنَّ الخطوة الأولى في درْب تزكية النفس هي الاعتراف بأنَّ النقص والخطأ من صِفات البشر - باستثناء الأنبياء والرُّسل الذين أدَّبهم الله فأحسن تأديبَهم وجعل لهم العِصمة - وكيف لا يكونُ الإنسان عُرضةً للنقص و إبليس اللعين يَنصِبُ له حِبالَه وشِباكَه ليُوقِعه في نقص المعصية وعَيْبِها؟! إنَّ الاعترافَ بالنقص لا يُعتَبر مُسوِّغًا لقبوله أو التمادي فيه، ولكنَّه يُذكِّر بضَرورة التَّواضُع والعمَل على تربية النَّفس بمعرفة عيوبها وإصلاحها، وهذه هي التزكية التي جعلَها الله شرطًا للفَلاح في الدُّنيا والآخِرة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10].

68/ ملخصة من عدد من المصادر من أهمها مقالين : أحدهما : مقال بعنوان خطوات عملية في تزكية النفس – للدكتور: صغير بن محمد الصغير– شبكة الألوكة – والآخر مقال بعنوان : تزكية النفس – للأستاذ :سيد محمد بن جدو– موقع صيد الفوائد.

69- ملخص من : إحياء علوم الدين (382/4) .خطبة عن (تزكية النفوس) (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ) – موقع خطب حامد إبراهيم ، ومقال النفس الانسانية في القران الكريم - للدكتور عادل عمر - مركز مقديشو البحوث والدراسات . وجواب عن سؤال كيف يزكي المسلم نفسه باختصار - العلّامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي – موقع نسيم الشام . ومقال :بين النفس والعقل (2) -حسام بن عبدالعزيز الجبرين – شبكة الألوكة .

إنَّ البحث عن حقيقة النفس ومعرفة عيوبها هي ضالَّة الحكماء والعُلَماء وأهل الزهد والصلاح الذين أفنَوْا أعمارهم في البحث عنها، ولقد عَدَّها بعضُهم من أنفَس الهدايا؛ إذ يقول: "رَحِمَ الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي"[70].

ومع ذلك قد يحاول بعض الناس الهروب من عيوبهم وطباعهم وصفاتهم السيئة، ويبرزون الصفات الحميدة فقط على الرغم من معرفتهم الجيد بكل ما بهم من عيوب و أين تكمن المشكلة، حيث إن الاعتراف بالعيب أو بالأشياء التى تحتاج إلى تصحيح فى شخصيتنا هو أولى خطوات التخلص منها [71].

ومن ناحية أخرى مما يجعل البعض يرفض الاعتراف بالعيوب الشعور بأنه قد بلغ مرحلة من الصلاح لا يحتاج فيها إلى تذكير ونصح لكثرة ما قرأ وعلم في إصلاح النفوس .

انظر إلى حال هؤلاء ثم انظر إلى ما ورد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي) وكان يسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه قال: ما الذي بلغك عني مما تكرهه.قال: أعفني يا أمير المؤمنين فألح عليه، فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل.قال: وهل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذان فقد كفيتهما.

وكان يسأل حذيفة ويقول له: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في معرفة المنافقين فهل ترى علي شيئا من آثار النفاق.

فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه.

70- مقتبس من مقال :اعرف نفسك - هشام محمد سعيد قربان – شبكة الألوكة الشرعية .

71- تقول الدكتورة تغريد صالح استشارى الطب النفسى، إن فكرة عدم مواجهة العيوب، إن دلت على شىء فهى تدل على تقبلها ومحاولة التعايش معها دون تغيير.

فنجد صفات كالأنانية والطمع والغيرة والشك والكذب وغيرها من الصفات الذميمة التى إذا لم يتم الاعتراف بها والعمل على حصرها والتقليل منها، تكبر وتتفاقم، مع ازدياد صعوبة الحياة ومتطلباتها.

مما يعمل بدوره على وقوع الفرد الذى يتسم بها ووقوع المحيطين به فى مشاكل لا حصر لها، مما يدفع الناس للابتعاد عن هؤلاء الأفراد والانقطاع عنهم بشكل كلى.

وتنهى الدكتورة تغريد صالح حديثها "لا داع للعناد والمكابرة فى عدم الاعتراف بالعيوب، لأنها عاجلا أم أجلا تضر صاحبها، حينها سيحاول مواجهتها وعلاجها بعد أن يكون قد فات الأوان.

فكل من كان أرجح عقلا و أقوى في الدين وأعلى منصبًا، كان أكثر تواضعًا، و أبعد عن الكبر والإعجاب وأعظم اتهامًا لنفسه، وهذا يعتبر نادرًا يعز وجوده.

وهؤلاء وأولئك يقال لكل واحد منهم خاطب نفسك بمثل ما خاطبها به الغزالي في إحيائه حيث يقول :

ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك، ولا تضيعي أوقاتك، فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت،[72] واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها .

يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته، فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب. وهو القادر على ذلك.

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً و أقصر مدة من زمهرير الشتاء، أم تظنين أن ذلك دون هذا، أم تظنين أن العبد ينجو منها من غير سعى ؟ هيهات !!

فكما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات.

فإذا كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها، وتنزهاً عن كثرة عنائها، وتوقياً من سرعة فنائها، أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها، ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا يخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك فيها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها.

72/ يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم : (اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ : شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ ، وحَياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل - (111)، والحاكم في المستدرك - (7846)، والبيهقي في شعب الإيمان - (10248) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما) حديث رقم (13430) .(الدرر السنية – الموسوعة الحديثية) .

ويحك يا نفس أما علمت أن المذنب أنتن من العذرة، وأن العذرة لا تطهر غيرها، فلم تطمعين في تطهير غيرك و أنت غير طيبة في نفسك، ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس لا يصيبهم بلاء إلا بشؤمك [73].

الخطوة الثانية : مخالفتها والإنكار عليها وعدم تلبية رغباتها :

وذلك لأن من شأن النفس الخلود إلى الدعة والراحة وعدم الالتفات إلى العواقب الوخيمة المترتبة على الكسل واتباع الهوى .وقد ورد النصوص الشرعية بالأمر بمخالفتها ومن ذلك :

قول تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) سورة النازعات (40-41) . **أي :** وأما من خاف القيام بين يدي الله للحساب، ونهى النفس عن الأهواء الفاسدة، فإن الجنة هي مسكنه.

عن أبي برزة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم، و فروجكم، و مضلات الهوى) [74].

يقول الغزالي رحمه الله : اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقت أمارة بالسوء مبالغة في الشر فرارة من الخير، وأُمرتَ بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك [75].

ويقول في موضع آخر: (اقتضت حكمةُ الله سبحانه وتعالى ربطَ نجاةِ الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع).

فلولا أن مخالفة الهوى أمرٌ صعب لكان الكل ناجٍ، وإلّا فلماذا أعطى اللهُ تعالى الجنة كمكافأةٍ لمن يخالف هواه؟ لأن مخالفة الهوى ليست بالأمر السهل.

ويؤكد ابن القيم رحمه الله : (...فإن من العابدين أناس توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات دون مطالعة عيب النفس والعمل والتفتيش على دسائسها ومحاسبة النفس عليها،

73/ إحياء علوم الدين (386/4) .

74- الترغيب والترهيب المنذري، ص.1/83 رواه أحمد وغيره وبعض مسانيده ثقات .

75/ إحياء علوم الدين (382/4) .

ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها، ولو تفرغوا لتفتيشها ومحاسبة النفس عليها والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق لشغلهم ذلك عن استكثارها.

ولأجل هذا كان عمل العابد القليل المراقبة لعمله خفيفاً عليه فيستكثر منه ويصير بمنزلة العادة، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب وتنقيتها من الكدروما في ذلك من شوك الرياء وجد لعمله ثقلاً كالجبال وقلّ في عينه، ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله والقيام بأعبائه والتلذذ والتنعم به مع ثقله، وإذا أردت فهم هذا المعنى كما ينبغي فانظروقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وفهم ما أريد بكل آية وحظك من الخطاب بها، وتنْزيلها على أدواء قلبك كيف تدرك الختمة أو أكثرها بسهولة وخفة مستكثراً من القراءة) .

*** *** ***

الخطوة الثالثة : سوء الظن بالنفس والحيلولة بينها وبين الاغترار بالعمل والإدلال به على الله:

سوء الظن بالنفس اختلف فيه العلماء، فمنهم من رأى الاستحباب [76]، قال ابن القيم: (أما سوء الظن بالنفس فإنما احتاج إليه؛ لأنَّ حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالًا، فإنَّ المحبَّ يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعين الرضى عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه) [77].

76- هذا هو الراجح لما ستقرأ من كلام العلماء ، منهم من رأى الكراهة؛ قال الماوردي: (منهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها، وردِّ مناصحتها. فإنَّ النفس وإن كان لها مكر يردي، فلها نصح يهدي. فلما كان حسن الظن بها يعمي عن مساوئها، كان سوء الظن بها يعمي عن محاسنها. ومن عمي عن محاسن نفسه كان كمن عمي عن مساوئها، فلم ينف عنها قبيحًا، ولم يهد إليها حسنًا. وقال الأحنف بن قيس: من ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم) (أدب الدنيا والدين - (1/234-235).

- ومنهم من قال بالموازنة بين سوء الظن وحسن الظن. ينبغي على المرء أن - (يكون في التهمة لنفسه معتدلًا، وفي حسن الظن بها مقتصدًا، فإنه إن تجاوز مقدار الحقَّ في التهمة لنفسه ظلمها؛ فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها آمنها؛ فأودعها تهاون الآمنين. ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل) (البيان والتبيين)) للجاحظ (1/95-96) نقلا موسوعة الأخلاق عن الدرر السنية.

77- مدارج السالكين - (1/189)، وأدب الدنيا والدين - للماوردي - (1/235-236).

فإن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش عن عيوب النفس ، يقول ابن القيم رحمه الله :... على السالك أن لا يرضى بطاعته لله، وألا يحسن ظنه بنفسه، فإن الرضى بالطاعة من رعونات النفس وحماقاتها، ودليل على جهل الإنسان بحقوق العبودية وما يستحقه الرب سبحانه ويجب أن يعامل به.

ثم إن رضى الإنسان وحُسْنه ظنه بنفسه يتولد منهما من العجب والكبروالآفات الباطنة ما هو أشد من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر.

قال ابن القيم رحمه الله: وقد اتفق السالكون على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، و أنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها والظفر بها [78].

وضابط سوء الظن بالنفس (هو اتهام النفس، فلا يتهم ربه، وإنما يتهم الإنسان نفسه بالتقصير، ويعاملها بالاتهام ليدفع عنها الغرور والعجب، دون أن يخرجه ذلك إلى حدِّ سوء الظنّ بالله، أو اليأس من رحمته؛ لأنَّه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، فلا ييأس الإنسان من روح الله، ولا يقنط من رحمته، لكن ليجتهد في الطاعات، ومع ذلك يتهم نفسه وعمله، ولا يدري أقبل عمله أم لم يقبل؟ مع ثقته في أن الله سبحانه وتعالى لن يضيع عمل عامل من المؤمنين أبدًا) [79].

*** *** ***

الخطوة الر ابعة : محاسبة النفس :

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) سورة الحشر (18).

قال السعدي رحمه الله : وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، و أنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه،

78/ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (75/2) .

79- شرح العقيدة الطحاوية – للدكتورسفر الحوالي.

وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

ومن الأدلة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) رواه أحمد والترمذي وحسنه . **دان نفسه:** أي حاسبها.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ). أخرجه أحمد في مسنده .

وكتب رضي الله عنه إلى أحد عماله فقال : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة .

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته .

وقال أيضاً : المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

وقال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى : لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه .

وكان الأحنف ابن قيس رحمه الله تعالى يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول: حِس يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟.

وذكر الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن وهب قال : (مكتوب في حكمة آل داود : حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها

مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات، وإجماماً للقلوب)[80].

ويقول ابن القيم رحمه الله : ومما يعين على هذه المراقبة : معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدا، ومما يعينه عليها أيضاً معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاحظ لها يمكن أن يشتري بها كنْزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآبدين، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم و أقلهم عقلا، و إنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن قال تعالى :(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)[81] سورة آل عمران (30) .

ومحاسبة النفس نوعان: نوع من قبل العلم ونوع بعده :

أما النوع الأول : فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.قال الحسن رحمه الله: " رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره تأخر".

والنوع الثانى : محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع :

1- محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغى وحق الله فى الطاعة ستةأمورهى:: الإخلاص فى العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهود مشهد الإحسان، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله، فيحاسب نفسه هل وفى هذه المقامات حقها؟ وهل اتى بها فى هذه الطاعة؟.

80/ يراجع لهذه الأقوال إغاثة اللهفان لابن القيم (1/ 78-79) .

81/ إغاثة للهفان من مصايد الشيطان – لابن القيم - (1/80) .

2- أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.

3- أن يحاسب نفسه على أمر مباح لم فعله، وهل أراد به الله تعالى والدار الآخرة فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به .

الخطوة الخامسة : الإقلال من النوم والأكل والكلام :

ومما يعين على تزكية النفس عدم الإكثار من هذه الأمور الثلاثة والإفراط فيها، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله موجبة لقسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي، وكثرة الأكل موجبة لقوة نوازع النفس الشهوانية لدى الإنسان، وتوسيع مجاري الشيطان فيه، وكثرة الأكل موجبة لكثرة النوم وكثرة النوم موجبة للعجز والكسل فضلاً عن أنها مضيعة للعمر، وقد قيل : من أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيرا.

قال الله تعالى: [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] {الأعراف:31}، وقال النبي صلَّى الله عليه وسلم:" ما ملأَ ءادميّ وِعَاءً شَرًّا مِن بَطنِهِ بحَسْبِ ابنِ ءادمَ لُقَيمات يُقِمنَ صُلبَهُ فإن كانَ لا محَالةَ فثُلُثٌ لطَعامِهِ وثلُثٌ لشَرابِهِ وثُلُثٌ لنَفَسِهِ" رواه الترمذي.

قوله عليه الصلاة والسلام: (بحَسْبِ ابنِ آدَمَ لُقَيمات) أي يكفِيه لقَيمات وهي ما دونَ الأحَد عشَر. يُقِمنَ صُلبَه أي تحفظ لهُ قُوَةَ جسَدِه .

إنَّ في قِلّة الأكل كما يقولُ الأطباء والحكَماء مَنافعُ كثيرة على صِحّة البَدن والقَلب والدِّماغ. وقد قال بعض مشاهير الأطباء العرب: المعدةُ بيتُ الدّاءِ والحِمية رأسُ كُلّ دَواء.اهـ ففِي قِلّة الأكل عافيةُ البَدن، ويُصبحُ الرّجل أصحَّ جِسمًا وأَجودَ حِفظًا وأَزكَى فهمًا، أقلّ نومًا وأخَفّ نَفسًا، ومَن قَلَّ طَعامُهُ وشَرابه، صَحَّ جِسمهُ من كثيرٍ مِنَ العِلَل ورَقَّ قلبهُ وزاد عطفه على الفقراء. لذلك يقول أحد الحكماء: مَن أرادَ عافيةَ الجِسم فليُقلّل مِنَ الطّعام، ومَن أرادَ عافيةَ القَلب فلْيَترُكِ الآثام ورَاحةَ اللِّسَان في قِلّة الكلام. اهـ وقيل: لا تَسكن الحكمة معدةً مُلِئَت طَعامًا.اهـ

*** *** ***

وأمّا مَنافعُ تقليل الطّعام على القَلب فلِقِلّة الطّعام معَ تَرك الذّنوب تأثير عظيم على قُوّة العقل والفَهم وعلى صَلاح القَلب وتَنويرِه كما يقولُ العلماء والحكماءُ، فالبِطْنَة: وهيَ امتلاء المعدة بالطعام الكثير تُقَسّي القلب وتُغيّر في العَقل وتُورث الكسَل والانحطاطَ وإنّ كثيرَ الأكل يتَثاقلُ

صاحبُه عن كثيرٍ مما يُريد. وأمّا قِلّة الأكل فتُورِثُ رِقّةَ القَلب وتَنويره وقُوّة الفهم و انكسارَ النّفس وضعفَ الهوى والتّقليل منَ الغَضب.

يقول السّيد الجليل إبراهيم الخواص: دواءُ القَلب خمسةُ أشياء: قِراءة القرءان بالتّدبّروخَلاءُ البَطن وقيامُ اللّيل والتّضَرّع عندَ السّحَرومجالسَة الصّالحين.

ويقولُ أيضًا رضي الله عنه: إذا أرَدت حَاجَةً مِن حَوائج الدّنيا والآخِرة فلا تأكلْ حتى تقضِيَها فإنّ الأكلَ يُغيّرُ العَقل".اهـ

ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها أخبرت عن سيرة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في طعامه وشرابه فقالت :لم يمتلىء جوفُ النبي صلى الله عليه وسلم شِبَعًا قَطّ و أنهُ كانَ في أَهلهِ لا يَسألهم طَعامًا ولا يتَشهّاه، إن أطعَموه أكلَ وما أطعَموه قَبِل وما سقوه شرِب.اهـ

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلَّى الله عليه وسلم قال :"المؤمن يأكل في مِعًى واحِد والكافرُ يأكُل في سَبعةِ أَمعَاءٍ "وفي هذا الحديث حَضٌّ على التّقليل مِن نعيم الدّنيا والزّهد فيها، والقناعة بالقليل من الطعام والشراب.

والإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه يقول في الشِبع:" الشِبَع يُثقِل البدَن ويُزِيل الفِطنَة ويجلِبُ النّوم ويُضعِفُ صاحبَه عن العِبادَة" . اهـ

إنّ كثرةَ تَناول الطّعام والشراب مِن غيرِ حَاجةٍ إلِيهما يُورث الكسَل والانحِطاط وفسَادَ البَدن وكذلكَ امتلاءُ المعدة بالطّعام وإدخالُ طَعام على طَعام يجعَلُ المعدةَ تَضغط على القَلب أو الرّئة أو الحِجاب الحاجزويُقلّل مِن إدخالِ الأوكسجين المطلوب لهضم الطّعام وتَراكُم الدّهون في جُدران الأوعية الدّموية مما يؤدّي إلى تصَلُّب الشّرايين حيثُ يُصبِح جِدار الأوعيه الدّموية صَلبًا غَير مَرِن لا يستَطيع الانقِباض والانبِساط حيث تَتطلب حَاجة الجِسم، ومِن ثَمّ يتَطوّر الوضعُ لحدُوث ارتفاعٍ في ضَغطِ الدّم حيثُ يُسبِّب ذلك أمراضًا كثيرةً مثلُ ضَعف الذّاكرة وقِلّة التَّركِيز، وإصابةُ مَراكِز السّمْع والبصر والذّبحة الصّدريّة وهُبوط في عضَلَةِ القَلب وكذلكَ الفشَل الكَلَوي.

يقول طبيبُ العرب الحارث بنُ كَلَدَه : المعدةُ بيتُ الدّاء والحِميَةُ رأسُ كلّ دواء.اهـ وقالَ أحدُ الحكَماء:" لا تَأكُلوا كثيرًا فتَشرَبُوا كثِيرًا فتَنامُوا كثيرًا فتَخسَروا كثيرًا ".اهـ

اللهم ارزُقنا الزّهد في هذه الدنيا الفَانية وارزُقنا التّقليل من التّنعم، اللهمّ لا تجعل الدّنيا أكبر هَمِّنا ولا مَبلَغَ عِلمنا يا مُقلّب القلوب ثَبِّت قلوبَنا على طاعتِك[82].

وأخيرًا رحِمَ الله قائل هذه الأبيات :

رغِيفُ خُبزٍ يابِسٍ   تأكلُه في زاويةْ

وكُوزماءٍ بارِدٍ   تَشرَبُهُ مِن صافِيهْ

وغُرفَةٌ ضَيِّقَةٌ   نفسُكَ فيها خَاليهْ

أو مَسجِدٌ بمعزِلٍ   عن الوَرى في ناحِيهْ

تَدرُسُ فيهِ دفتراً   مُستَنِدًا بسَاريهْ

مُعتَبِراً بمن مضَى   مِنَ القُرون الخاليهْ

خَيرٌمِنَ السّاعاتِ في   فيءِ القصورِالعَاليهْ

تُعقِبُها عُقوبَةٌ   تُصلى بنارٍ حَاميَه

*** * * * * ***

82/ التقليل من الأكل يساعد على زيادة قدرة الدماغ وقوّة التركيز، لهذا ينصح أن تكون الدراسة أو التقدّم للامتحانات بمعدة غير ممتلئة وشبه خاوية؛ لأنّ التركيز يكون في أعلى حالاته. التقليل من الأكل يزيد العمر ويزيد فرصتك لقضاء شيخوخة صحيّة بعيدة عن الأمراض المزمنة والبدانة، فهناك دراسات حديثة تقول أن التقليل من السعرات الحرارية المستهلكة في الطعام يومياً يبعد عنك عوامل أمراض الشيخوخة كمرض ألزهايمر مثلاً. التقليل من الأكل يمتعك بجسد رشيق خفيف في الحركة، فمن المؤكد أنّ التقليل من الأكل على المدى الطويل يساعدك أن يكون وزنك مناسباً وهذا عادةً يعطي شعوراً بالنشاط وعدم الكسل وسهولة الحركة. التقليل من الأكل يساعد على الوقاية من أمراض ضغط الدم، والقلب، والسكري، والسكتات الدماغية، وأمراض الجهاز الهضمي، وبعض أنواع السراطانات. فوائد نفسية للتقليل من الأكل صفاء القلب والروح، فيكون الذهن صافياً ويبقى القلب حاضراً فقد قالوا: "إن الشبع يورث البلادة ويعمي الفؤاد". الابتعاد عن الشهوات، فتقليل الأكل يبعدك عن التفكير بأيّ شهوات أخرى، وتساعد المرء على أن يملك نفسه، ويتحكم فيها وتعتاد القناعة وتتروض. تسهيل العبادات، فهناك كثير من العبادات تحتاج إلى جهد جسدي، والقيام بها لن يكون سهلاً إذا كان البطن متخماً بالطعام والشراب. الشعوربالفقراء والإحساس بما فيهم من انكساروذل، وهذا من أهم الأسباب التي فرض لأجلها علينا الصيام في شهر رمضان، فهو يربي النفس على الشعوربمعاناة الآخرين، ويدفعنا إلى تقديم المساعدة والعون لهم. ترك الإفراط في النوم، فكثرة الطعام والشراب تسبب التخمة والاستغراق في النوم، حيث إن الطعام يثقل الجسم، ويزيده خمولاً، وكثرة النوم تعني ضياع العمر، ومن أضاع عمره نائماً، قصر في عمله ودينه وعباداته.

القسم الثاني : خمس خطوات في سبيل التحلية :

الخطوة الأولى : التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى يؤدي اكتساب مكارم الأخلاق :

لأن (السلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وما يدين به من دين، والانحراف في السلوك ناتج عن خلل في المعتقد، فالعقيدة هي السنة، وهي الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول، ويلحق بها مما هو من أصول الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا؛ فإذا صحت العقيدة، حسنت الأخلاق تبعا لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق، وتردعه عن مساوئها) [83].

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم أن الغاية من بعثته الدعوة إلى مكارم الأخلاق كما في الحديث (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) [84].

كما قال صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا). وقال صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم) [85].

وباستحواذ التوحيد يقيناً راسخاً على العقل، أي أن يتحول التوحيد من كلمة "لا إله إلا الله"! إذ يرددها اللسان إلى يقين عقلي جازم بأن الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، لا يشركه في شيء منها أحد. فهووحده القائم بأمرهذا الكون كله، ومن ثم فهو الموجد والمعدم، وهو الضار والنافع، وهو المعطي والمانع.

غيرأن التوحيد لا يتحول من شعارعلى اللسان إلى يقين راسخ في العقل، ثم تأثيرعلى الوجدان، إلا بالإكثارمن مراقبة الله، ولا يكون ذلك، إلا بالإكثارمن ذكره، أي تذكره، واللسان ليس إلا أداةً لهذا التذكر. وخيرسبيل لهذا الذكروالتذكرأن يربط الإنسان دائماً النعم التي تفد إليه

83- موسوعة الأخلاق- لخالد الخراز- (ص 58) (موسوعة الأخلاق – الدررالسنية) .

84- السنن الكبرى للبيهقي (10/ 323). وفي رواية: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأخلاق» صحيح الأدب المفرد، باب حسن الخلق، (ص: 118).

85- رواه أبو داود (4682)، والترمذي - (1162)، وأحمد - (250/2) حديث رقم - (7396). قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه الحاكم (43/1)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد - (306/4): رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

بالمنعم، فكلما أقبلت إليه نعمة تذكّربها المنعم و أيقن أنها و افدة إليه منه، ومن المعلوم أن نعم الله كثيرة لا تحصى. ولقد كانت هذه طريقة سيدنا رسول الله في ذكر الله عزوجل.

*** *** ***

الخطوة الثانية : الإكثار من ذكر الله تعالى : فالذكر له الأثر الكبير في تزكية النفس وتخليصها من عيوبها وتنقيتها من مساوئ أخلاقها وتحويلها إلى التحلي بمكارم الأخلاق وجميل الصفات وخاصة الصلاة فهي من أعظم ما تزكو به النفوس ولذلك قرن الله تعالى بينها وبين التزكية في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 14. 15].

غالبية الناس لا يفهمون من مقاصد الصلاة إلا أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر – وهذا صحيح وقد تحدثنا عنه في المبحث السابق - بينما نجد أن الله تعالى قد بين لنا أن الصلاة هي السبب الرئيس في اكتساب مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات وذلك في موضعين من كتاب الله تعالى :

الأول : قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) إلى قوله تعالى(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

سورة المؤمنون الآيات (1-11) .

الثاني : قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) إلى قوله تعالى (أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ) سورة المعرج الآيات (21-35) ؟

و أكتفي هنا بذكر نموذجين – مما تقدم من الآيات - للدلالة على أن الصلاة سبب في اكتساب مكارم الأخلاق [86]:

الأول : قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} والإعراض عن اللغو خصلة من خصال الإيمان، واللغو: ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال.

فيدخل فيه اللهو والهزل وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام.أى: أن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يتزهون أنفسهم عن الباطل والساقط من القول أو الفعل، ويعرضون عن ذلك في كل أوقاتهم لأنهم

86- وقد فصلت القول في هذا الموضوع في كتابي المجلي عن روحانيات المصلي - الفصل الثالث : من مقاصد الصلاة وثمارها - المبحث الثاني : ثمرة الصلاة تحسين الأخلاق (وهو منشور في موقع صيد الفوائد) .

لحسن صلتهم بالله- تعالى- اشتغلوا بعظائم الأمور وجليلها: لا بحقيرها وسفسافها، وهم كما وصفهم الله- سبحانه- في آية أخرى: **(وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً).**

وقد ربط بعض العلماء بين الخشوع في الصلاة وبين الإعراض عن اللغو فقال : مَنْ كثر لغوه قل خشوعه لأن اللغو له تأثير في القلب ، والعكس بالعكس أي من قل لغوه زاد خشوعه .

الثاني : قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}.. والزكاة فريضة مهمة من فرائض الإسلام، وهي تمثل معنى التكافل الاجتماعي بين الناس، وأداءً لحق الفقراء على الأغنياء .

يرى بعض العلماء: أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس. أى: تطهيرها من الآثام والمعاصي. فهي كقوله- تعالى-(**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها**) أى: أن من صفات هؤلاء المؤمنين، أنهم يفعلون ما يطهر نفوسهم ويزكيها.

قال ابن كثير رحمه الله: " ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا " .

وقد يقول قائل لم كان للذكر هذه الخاصية في تزكية النفس يجيب العلامة الساحلي رحمه الله تعالى87 - مبيناً السبب في ذلك - **قائلاً :(لأن الذكر إذا استُعمل على طريقه المعروف، ومهيعه المألوف، مبنيّا على قواعد الشرع، محفوظا من خطوات الزيغ، فإنه لا يدع من علل النفس شاذة ولا فاذة ولا أثراً إلا أتى على ذلك بالذهاب، حتى تبلغ النفس غاية طهارتها، ولا يبقى عندها التفات إلى غير الله تعالى) .**

ثم يتابع رحمه الله قائلا : (وإن كان مِن سائر أعمال البر ما يؤذن بخلاص النفس وتصفيتها، فللذكر خاصية في ذهاب الآثار؛ إذ لا يكون تخليص إبريزها من كدرات أوهامها أو أثرها إلا بشعيرة الذكر فظهر لك أن للذكر اختصاصا عجيبا في طهارة النفس الطهارة التامة، وتصفيتها التصفية العامة ،حتى تصير لها الطهارة صفة ذاتية، وغير الذكر قد يبقى معه من علل النفس ما هو حجاب عن الله، وإن كان خفياً.

وقد تقنع النفس بذلك الخفي وتتحمل لأجله المشاق، وتقتحم المضايق من الطاعات راضية بذلك؛ لأن إخراجها عن جميع هواها هو البلاء العظيم، لكن وراءه من المعارف الإلهية والأسرار

87/ بغية السالك في أشرف المسالك - الساحلي – ص (27- 28).

القدسية، والحكم الربانية ما تقربه الأعين، وتنتظم به الأفراح، وتذهب به الأحزان، فلا مخلص من علل النفس إلا بالذكر) اهـ.

الخطوة الثالثة : التحلي بالصبر واليقين : فبالصبر ينتصر على شهوات نفسه فيحجزها عن المحرمات ويحبسها على الطاعات، فجانبي التزكية : التخلِّي والتحلِّي[88] لا يمكن الحصول عليهما إلا عن طريق الصبر.

قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا إن الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس بار الجسم،ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له،وقال: الصَّبر مطية لا تكبو.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : الصَّبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبدٍ كريم عنده .

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: ما أنعَم الله على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه، فعوَّضه مكانها الصَّبر إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزعه [89].

وقال ابن تيمية رحمه الله : ذكر الله الصَّبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا وقرنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45] .

وقوله تعالى : ﴿وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: 114-115].

وجعل الإمامةَ في الدِّين موروثةً عن الصَّبر واليقين بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]؛ فإن الدين كله علمٌ بالحق، وعملٌ به، والعمل به لا بد فيه من الصَّبر[90] .

88/ الخلي عن الصفات المذمومة كالكبر والحسد والعجب ونحوها ،والتحلي عن الصفات المذمومة كحب الله والخوف منه وخشيته ونحوها .

89/ هذه الآثار من عدة الصابرين - لابن القيم - ص (95) .

90/ مجموع فتاوى ابن تيمية – (10/39-40).

وأما اليقين فإنه يقضي به على ثبات النفس التي يُوسوسها بها الشيطان، ولذلك كان من حصل على هذين المقامين يعد من أئمة الهدى في هذا الدين، قال سفيان : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، قال الله عزوجل: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) سورة الأنبياء(73) وقال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت (45)] .

*** *** ***

الخطوة الرابعة : تنميةُ الصفات الطيبة ورعايتُها حتى يكون لها الغلبة : مثل : الإخلاص، والإنابة، والخوف من الله، والشكر، والتواضع ،ففي الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّما العلمُ بالتَّعَلُّمِ ، وإِنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ ، ومَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ)[91] .

قلت : فقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ) وهذه الجملة على وجازتها ضرب من الإعجاز النبوي في البلاغة والبيان لأنها تبين لنا أن النفس ما لم يحملها صاحبها على الصفات الحميدة فلن تنقاد ، فهي في حاجة إلى المتابعة المستمرة في كسب تلك الصفة حتى تصبح جزءً من الإنسان لا يتخلى عنها بل يتلذذ بممارستها . والله أعلم .

وهذه الصفات المذكورة وغيرها مما يجب على المسلم أن يتحلى به ظاهرا وباطنا تجدها أخي الكريم بالتفصيل في كتب التزكية [92].

ومما يعين على كسب الصفات الطيبة الصحبة الصالحة التي تعين على تربية النفس وتزكيتها والبعد عن كل ما يضرها ويهلكها ، ففي حديث الذي قتل مائة نفس وتاب قال له العالِم: (انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء)؛ رواه مسلم .

91/ قال الألباني في السلسلة الصحيحة - حديث رقم: 342 - (إسناده حسن أو قريب منه) .(الدرر السنية).

92/ كمدارج السالكين لان القيم والتحفة العراقية لشيخ الإسلام، ومختصر منهاج القاصدين، ومجموعة رسائل الحافظ ابن رجب وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ومن كتب المعاصرين : كتاب أعمال القلوب للشيخ محمد صالح المنجد ومعالم في التربية والدعوة للشيخ صالح أحمد الشامي رحمه الله وغيرها وكتبت في هذا الموضوع كتاب : منح الكريم المنان بشرح صفات عباد الرحمن .(منشور في موقع صيد الفوائد) .

وثمامة بن أثال رُبط في سارية المسجد وهو كافر وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعطَ منه ما شئت، ثم قال: سأله اليوم الثاني مثل ذلك وأجاب بمثل جوابه، وفي اليوم الثالث كذلك، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أطلقوه فأطلقوه، ثم ذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل وجاء فأعلن إسلامه)، لقد عاش قبيل إسلامه في بيئة طيبة إيمانية في المسجد؛ حيث الصلاة والأذان، والذكر والقرآن، والدعاء ونحو ذلك.

وقال علي رضي الله عنه :

كم من جاهل أردى   حليماً حين آخاه

يقاس المرء بالمرء   إذا ما المرء ماشاه

***   ***   ***

الخطوة الخامسة : الإكثار من الدعاء واللجوء إلى الله تعالى في سائر الأمور:

وذلك لأن الدعاء من أهم أبواب الدخول على الله فهو عبودية محضة، وباب العبودية المحضة المقصود منه هو باب الانكسار والافتقار إلى الله تعالى، والذل، ذلك بأن يستشعر الإنسان أنه ذو صفاتٍ تقتضي الحاجة إلى رحمة ربه بأن يلجأ الإنسان إلى الله دائماً أن يقيه شر نفسه وأن يعينه على طاعة الله، فقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام: (اللَّهمَّ اغفرلي ذنوبي وخطاياي كلَّها ، اللَّهمَّ أنعِشني واجبُرني واهدِني لصالِحِ الأخلاقِ والأعمالِ ، لا يَهدي لصالِحِها ولا يصرفُ سيِّئَها إلَّا أنتَ) [93] .

ويلازم الدعاء الوارد في هذا المقام عنه صلى الله عليه وسلم علَّم حصينا رضي الله عنه أن يقول: (اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي) رواه الترمذي .

93/ قال الهيثمي (112/10) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير الزبير بن خريق وهو ثقة وحسنه الالباني صحيح الجامع (1536) .

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها) ولهذا قال: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) من يعلم منه أن يزكى بالتزكية، ولهذا قال: (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

كما روى زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: (لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها وزكها؛ أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)؛ [صحيح مسلم (2722)]

وقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله، مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: (قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشَرَكِهِ، قله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك)؛ أخرجه أحمد، والنسائي، وأبو داود، والترمذي .

وختاماً : تذكر أخي الحبيب قوله تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) سورة النور(21) .

قال السعدي رحمه الله تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى، هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خُلِّي وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى [94].

*** *** ***

94/ وفي هذا السلسلة رسالة كاملة حول الدعاء وما يتعلق به فراجعه إن شئت .

المطلب الثالث

فوائد وثمار تزكية النفس

1- عمارة الأرض بما يحقق السعادة لنا ولغيرنا : ذلك أن نتعهد الروح بهذا الغذاء العلوي باستمرار، أن صلحاً يتحقق بين الروح والغرائز الحيوانية، وأن تنسيقاً يتم بينهما.. ويكون الحلم، على كل حال، للروح الموصولة النسب بالله عزوجل.

فهذا الإنسان يظل يعيش لرزقه ولطعامه ولشرابه كما كان، ويظل يبحث عما يشبع رغباته وشهواته وأهوائه.. ولكنه يتحرك تحت مظلة حكم الله عز وجل، بقيادة من هذه الروح الموصولة به سبحانه وتعالى.

كيف لا، وهو يقرأ قول الله عزوجل: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) سورة هود(61) **ويقرأ قول الله عز وجل: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)** سورة الملك(15) .

ولكن شتان بين من يتجه إلى هذه الحياة ليعمرها بدافع من التعلق بها والحب لها، وبين من يتجه إلى هذا العمل ذاته بدافع من عمل وظيفي أقامه الله عليه.

هذا هو فرق ما بين العبد المؤمن حقاً، وهو الذي يتوج إيمانه بذكر الله سبحانه وتعالى، وبين الإنسان التائه أو الشارد عن صراط الله عزوجل.

وأحب هنا ان أوضح حقيقة لعلها تجسد واقعاً له جانب سلبي، وله جانب إيجابي، وأسأله سبحانه وتعالى أن يحررنا من أحوالنا السلبية كلها: عندما نراجع يقيننا الإيماني، نجد أنا مؤمنون بالمعاد، وبمصير الإنسان بعد الموت، وعندما نرجع إلى كتاب الله الذي آمنا بأنه كلامه، نلاحظ بأن الله قد ضمن لنا معاشنا الدنيوي، لكنه طلب منا أن نبني لأنفسنا معادنا الأخروي .. كل هذا نراه مثبتاً في كتاب الله عزوجل، ثم نراه منعكساً إلى إيمان وعقيدة في عقولنا.

ومع ذلك فإنا نعود إلى واقعنا وسلوكنا العملي على الأرض، فنجد أننا نعيش –ويا للأسف- في قلق دائم تجاه ما قد ضمنه الله لنا، ونعيش في طمأنينة تامة تجاه ما قد أمرنا الله بالحذر منه.

*** *** ***

أليس هذا التشاكس بين وقعنا، ومبادئ العقيدة المرتكزة في عقولنا، تشاكساً خطيراً يدعو إلى علاج؟

ولكن فلنتساءل ما مصدر هذا التشاكس؟

مصدره أننا بعيدون عن ذكر الله عزوجل.. غرسنا الإيمان يقيناً في عقولنا، ثم لم نحوله عاطفة إلى قلوبنا!..وسبيل تحويل الإيمان من اليقين العقلي إلى الوجدان القلبي. طريق من ذكر الله عز وجل.[95]

2- الفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة : فلا يصلح لِمُلك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير قال الله تعالى :﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9 – 10].فإن من أعظم فوائد التزكية وعواقبها على أصحابها أنها تهبهم سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة .

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : من أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال: قال تعالى : (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً) (الجن:16).

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : من صفى صفي له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله.

3- راحة البال وسكينة القلب وطمأنينته و انشراح الصدر وسعته : قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4] .

وقال تعالى:﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].

*** *** ***

4- الثبات على الدين والطاعة : قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:27] فكلما قويت النفس وتهيأت

95- ذكر الله ذلك الجانب المنسي في حياة أكثر المسلمين اليوم – للبوطي – موقع نسيم الشام .

بالذكر والاستغفار والتوبة والإنابة كلما كانت أقدر بإذن الله على تجاوز العقبات والتغلب على الصعوبات فتثبت ولا تتزحزح.

5- وتزكيةُ النفوس سببُ الفوزِ بالدرجات العُلي : قال الله تعالى : (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) طه (75-76) .

قال ابنُ كثير رحمه الله تعالى : (أي طهرَّ نفسه من الدنسِ والخبَثِ والشركِ، وعبدَ اللهَ وحده لا شريك له) .

6- الاطلاع على عيوب نفسه : ومن لم يطلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالتها، قال يونس بن عبيد رحمه الله تعالى : إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسى منها واحدة.

وقال محمد بن واسع رحمه الله تعالى : لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليَّ ، وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: " لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون أشد لها مقتا ".

*** *** ***

7- أن يعرف حق الله تعالى عليه : فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والإنكسار بين يدى ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر.

8- خلق الله العقل ليدل ويتفكر ويُري صاحبه الطريق: والنفس خُلقَت لتشتهي وتهوى وترغب، تحب وتكره، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، والعقل يميز لها الخير من الشر، والنافع من الضار من طبائعها وشهواتها وأعراضها بحسب ما فيه من علم ومعرفة، وخبرة وتجربة في هذه الحياة.

وليس كل ما تشتهي النفس يصح أن تُعطاه على النحو الذي تحب وبالقدر الذي تريد، بل لا بد من عقل يضبطها؛ فالمريض ببعض أمراض الجلد تحب نفسه الحك ما دام يستمتع بالحكة ويجد تخفيفًا للألم، ولكن العقل يمنعه من القدر الزائد لئلا يتضرر.

والعقل ليس عدوًّا للنفس ولو حرمها، ولكنها هي قد تكون عدوة للعقل؛ فالمبتلى بإدمان المخدرات مثلًا يأمره عقله باجتنابها وفي ذلك مصلحته، ولكن نفسه تأمره بمزاولة ما اعتادته وألفته ولو كان ضارًّا مهلكًا، وتزين ذلك مع الشيطان؛ **ولذا في الحديث:** **(أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان)؛** [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي].

وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الفقر، وقد فسَّره الإمام أحمد بفقر النفس، والنفس الفقيرة هي النفس المأسورة بالشهوات، وإذا كانت النفس فقيرة لم ينفع الغنيَّ غناه، وإذا اغتنت لم يتضرر الفقير بفقره؛ لأن غنى النفس بقناعتها بما عندها؛ قال عليه الصلاة والسلام: **(ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس)؛** [أخرجه الشيخان].

*** *** ***

المطلب الرابع

صور من تزكية النفس في حياة السلف وغيرهم

1- عن محمد بن عمر المخزومي عن أبيه قال: نادى عمر بالصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس وكثروا صعد المنبر، فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس، لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم، فيقبض لي من التمر والزبيب، فأظل يومي وأي يوم، ثم نزل، قال عبدالرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زدت على أن قمئت نفسك – يعني: عبت – قال: ويحك يا ابن عوف، إني خلوت بنفسي فحدثتني قالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها [96].

2- ومن مواقف عمر بن الخطاب أيضًا في مراجعة النفس ما نقله ابن القيم قال: "ذكر الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله أنه رآه عمر ومعه لحم قد اشتراه لأهله بدرهم، فقال: ما هذا؟ قال: لحم اشتريته لأهلي بدرهم، فقال: أوَ كلما اشتهى أحدكم شيئًا اشتراه؟ أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ [الأحقاف: 20] [97].

*** *** ***

3- ومن معاتبات النفس الجادة نقف على خبر حنظلة بن حذيم الحنفي رضي الله تعالى عنه قال: (لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأْيُ عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا .

قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا و أبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأيُ عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

96- . محب الدين الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، ص: 259، ج: 2، ط: 1، 2000م، دار المنار، القاهرة.

97- الروح – لابن القيم .

والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات))؛ [صحيح مسلم (2750)].

وبمثل ذلك كان أصحاب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يراجعون أنفسهم على الدوام، ويفرضون عليها غمار العزائم القوية حتى في أصعب الأوقات، حتى انقادت لهم.

4- يروي والد عباد بن عبدالله بن الزبير الذي أرضعه رضي الله عنه يقول: والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتل، فلما قُتل جعفر، أخذ عبدالله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، وتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفسي لتنزلنهْ ... طائعةً أو لتُكرهنهْ

ما لي أراكِ تكرهين الجنة ... إن أجلب الناس وشدوا الرنة

لطالما قد كنتِ مطمئنهْ ... هل أنتِ إلا نطفة في شنَّهْ

وقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

يا نفس إن لا تُقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صُليتِ

وما تمنيتِ فقد لقيتِ ... إن تفعلي فعلهما هُديتِ

ثم نزل، فلما نزل، أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صلبك؛ فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشةً، ثم سمع الحُطَمة في ناحية الناس فقال و أنت في الدنيا؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قُتل [98].

يا كثير العفو عمن ... كثُر الذنب لديْهِ

جاءك المذنب يرجوا الـ ... ـصفح عن جرم يديهِ

*** *** ***

98- [الهيثمي في مجمع الزوائد (6/ 162)، وقال: رجاله ثقات].

5- مناظرة ابن الجوزي رحمه الله مع نفسه : وما زلت أغلب نفسي تارة وتغلبني تارة، فخلوت يوماً بنفسي فقلت لها: ويحك اسمعي أحدثك إن جمعت شيئاً من وجه فيه شبهة، أفأنت على يقين من إنفاقه؟ قالت: لا.. قلت لها: فالمحنة عند الموت أن يحظى به غيرك ولا تنالين إلا الكدر العاجل والوزر، ويحك اتركي هذا الذي يمنع الورع لأجل الله، أَوَمَا سمعت أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرمنه .

6- وقال: وجدت رأي نفسي في العلم حسنا إلا أني وجدتها و اقفةً مع صورة التشاغل بالعلم فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين الحذر؟ أَوَمَا سمعت بأخبار الصالحين في تعبدهم واجتهادهم.. أَوَمَا كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين ثم قام حتى تورمت قدماه؟ أما كان أبو بكررضي الله عنه شجي النشيج كثيرالبكاء؟ أما كان في خد عمررضي الله عنه خطان من آثار الدموع؟

7- وقال منصوربن عمارسمعت في بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهويقول : يا رب وعزتك ما أرد بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك و أنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى وأعاننى على ذلك شقوتى وغرنى سترك المرخى على فعصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك الآن من يستنقذنى أوبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى واسو أتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلينأحط ويلى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى ويلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فإلى متى أتوب وإلى متى أعود أما آن لى أن أستحيي من ربي.

8- وكان "عبيد الله" البجلى كثيرالبكاء يقول : في بكائه طول ليله إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى واعبيداه إن كانت النار لك مقيلا ومأوى واعبيداه إن كانت المقامع برأسك تهيأ واعبيداه قضيت حو ائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى .

*** *** ***

المبحث الخامس

مفاهيم شائعة حول النفس البشرية

المطلب الأول : مفهوم التنمية البشرية والثقة بالنفس من منظور إسلامي .

المحور الأول : الحكم الشرعي في علم التنمية البشرية .

المحور الثاني : مفهوم الثقة بالنفس وحكمه في الشرع .

المحور الثالث : كيف تصل إلى الثقة في نفسك .

المطلب الثاني : مفهوم جلد الذات من منظور إسلامي .

المطلب الثالث : النقد الذاتي من منظور إسلامي .

المطلب الأول

مفهوم التنمية البشرية والثقة بالنفس من منظور إسلامي

شاعت في العقود الأخير مصلحات لم تكم مألوفة في كتابات المسلمين ولعل من أبرزها مصطلح التنمية البشرية [99] والثقة بالنفس ولما كان المسلم لا يخطو خطوة إلا بعد أن يعرف الحكم الشرعي لها جوازاً أو منعاً ، أحببت أن أذكرما لا بد من معرفته حول هذين المصطلحين وجمعت بينهما لما بينهما من قوة العلاقة ، فأقول سائلا الله السداد والقبول :

المحور الأول : الحكم الشرعي في علم التنمية البشرية :

وجه أحدهم سؤالاً لموقع إسلام ويب ونصه : ما رأيكم في علم التنمية البشرية؟

الإجابة : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فننقل للسائل الكريم رأي خبيرة بهذه الأمور المستجدة ممن جمعت بين علم الشريعة والخبرة في هذه الأفكار المستجدة، وهي الدكتورة / فوز بنت عبد اللطيف كردي، أستاذة العقيدة والأديان والمذاهب المعاصرة بكلية التربية للبنات بجدة بالمملكة العربية السعودية، فقد سئلت عن هذا العلم، وإليك السؤال والجواب: السؤال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته سؤالي عن التنمية البشرية، ولجوء الكثير من الشباب إليها.. هل فيها محاذير؟

أقرأ أحياناً أن فيها تعزيز لثقة الإنسان بنفسه، وهذا ما في النفس منه شيء. ولكن يُقال أن البعض يربطها بالكتاب والسنة!

99- التنمية البشرية : هي عملية توسيع اختيارات الشعوب والمستهدف بهذا هو أن يتمتع الإنسان بمستوى مرتفع من الدخل وبحياة طويلة وصحية بجانب تنمية القدرات الإنسانية من خلال توفير فرص ملائمة للتعليم.

و مفهوم يجمع بين توسيع الخيارات المتاحة للبشروبين توسيع القدرات التي يكتسبها البشرلتوسيع الخيارات (تكوين القدرات وبناء الطاقات من خلال التعلم و اكتساب المهارات) وتوسيع القدرات (استخدام الناس لقدراتهم وتمكينهم من الاتنفاع بمها في مختلف الانشطة الحياتيه) وهذا حسب تعريف منظمة الامم المتحدة باختصاروتحديد .

بدأ مفهوم التنمية البشرية يتضح عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج البلدان التي شاركت في الحرب مصدومة من الدمار البشري والاقتصادى الهائل وخاصة الدول الخاسرة. فبدأ بعدها تطور مفهوم التنمية الاقتصادية وواكبها ظهور التنمية البشرية لسرعة إنجاز التنمية لتحقيق سرعة الخروج من النفق المظلم الذي دخلت فيه بسبب الحروب. ومن هذا التاريخ بدأت الأمم المتحدة تنتهج سياسة التنمية البشرية مع الدول الفقيرة لمساعدتها في الخروج من حالة الفقر التي تعانى منها .

ولعل أبرزمن ظهرت اسماؤهم وبرقت في عالم التنمية البشرية : إبراهيم الفقي وعمروخالد وطارق سويدان وغيرهم (نقلا عن موقع التنمية البشرية)

الجواب: دورات التنمية البشرية عنوان جذاب وجيد ومجمل يشمل ما هو نافع مفيد مع ما هو باطني خطير المنهج فاسد الطريقة، فكلمة (التنمية البشرية) تدل على تطوير المهارات وتنمية جوانب الشخصية ونحو ذلك مما هو مطلب حضاري ملح كالدورات المتعلقة بالجوانب الإدارية ومنها: التخطيط للحياة ورسم الأهداف وإدارة الوقت ونحو ذلك. والدورات المتعلقة بالجوانب الاجتماعية ومنها: دورات تربية الأبناء وفنون العلاقات الأسرية.

والدورات المتعلقة بالمهارات كدورات فنون الحوار والاتصال والإلقاء. ومنها ما هو متعلق بالجوانب النفسية كتنمية الإيجابية والشجاعة الأدبية ونحو ذلك.

إلا أن غالب دورات التنمية البشرية في الآونة الأخيرة تلك الدورات التي تجمع شيئًا من المطلوب المذكور مع كثير من الفلسفة والمغالطات العلمية والفرضيات والنظريات العلمية الخاطئة مع الطرق الباطنية وربما الطقوس الوثنية كدورات البرمجة اللغوية العصبية بمختلف أسمائها وتلوناتها (هندسة نفسية، استراتيجيات العقل)، وغيرها وكذلك دورات الطاقة البشرية وتشمل الريكي والشي كونغ والقراءة التصويرية وطاقة الألوان وغيرها كثير.

***   ***   ***

وجميع هذه الدورات تلبس رداء التنمية البشرية زيفًا وهي المقصودة بالتحذير في هذا الموقع فقد أفسدت في و اقع شباب الأمة وكثير ممن ظاهرهم الخير فيها وأخذتهم بعيدًا عن منهج الحياة الصحيح.

وربما كان أصل تسميتها (التنمية البشرية) دال على أصلها الذي انبثقت عنه من (حركة القدرات البشرية الكامنة) التي خرجت في الغرب من أجل تعظيم الإنسان وتدريبه للاستغناء عن الإله وعن الحاجة لاستمداد العون منه .

فينبغي الحذر منها وتحذير الشباب لكون بريقها ومستوياتها الأولى مبهرجة غير ظاهرة المخاطر للأغرار ومن ثم تشكل طعماً خطيراً يجرفهم في متاهات فكرية ولوثات عقدية كثيرة.

أما قضية ربطها بالكتاب والسنة فهذه مسألة أخرى أشد خطرًا لكونها تغطي فلسفاتها الباطلة بستار من الأدلة يغطي الحقيقة ويريد الفتنة والتلبيس. أسأل الله العظيم أن يحمي شبابنا منها. اهـ

***   ***   ***

المحور الثاني : مفهوم الثقة بالنفس وحكمه في الشرع :

الثقة بالنفس أمرٌ مكتسب يحتاج المسلم أن يتعرف على طرق تحصيله ليكون من أهله ولكن ينبغي عليه أولاً التفريق بين الثقة بالنفس والغرور فالثقة بالنفس تعني الشعور بما وهبك الله إياه من الصفات الحسنة والعمل من خلالها على ما ينفعك فإن أسأت استعمالها أصابك الغرور والعُجب وهما مرضان مهلكان وإن أنت أنكرتَ تلك النعم التي أنعمها عليك والصفات الحسنة التي وهبك الله إياها أصابك الكسل والخمول وخيبت نفسك ، وأضعت نعم الله عز وجل عليك . قال الله تعالى .(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) .

كما يجدر التنبيه على مسألة مهمة وهي أن ثقة المسلم بنفسه لا تعني عدم حاجته لربه تعالى ليوفقه ويسدده ولا تعني كذلك عدم حاجته لإخوانه ولعامة الناس لينصحوه ويرشدوه وهذا الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه تعالى به وهو أن لا يكِلَه لنفسه ولو طرفة عيْن ، عَنْ أبي بَكرة قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) رواه بو داود، وحسنه الألباني في صحيح أبي داودوفي صحيح الأدب المفرد.[100]

والآن أنقل إليك فتوى مهمة جدا توضح لنا الحكم الشرعي لموضوع الثقة في النفس فقد وجه أحدهم سؤالاً لموقع إسلام ويب ولكنه كان طويلا فاختصرته دون إخلال بالمراد :

يدعو علم التنمية البشرية إلى دعم الإنسان لثقته بنفسه بأن يؤمن بقدراته ومواهبه وإمكانياته، بأن يؤمن بأنه ذكي حتى يتصرف بذكاء، فيعيش في حالة نفسية وشعورية قوية و إيجابية تدعمه وتقويه وتعطيه همة وتفاؤلا وشجاعة ونبذ الخوف من المحاولة والفشل بسبب ضعف الثقة بالقدرات. فهل من جهة الدين يدعو الشرع لهذا بأن يثق المسلم في مواهبه وقدراته من جهة أن الله وهبه إياها و أنه إذا استعملها يستطيع أن يتغلب بها على كل الصعاب التي تواجهه، وأن يقر هذه القدرات في نفسه ويؤمن بها ويحدث بها نفسه دون تكبر بها على البشر، طبعا مع شكر الله والاعتراف بفضله؟ أم أن هذا غير مباح ومن المنهي عنه في الشرع، ويتعامل المسلم مع نفسه بالذم والتوبيخ كما كان يفعل السلف الصالح؟ وقد جربت هذه

100- الثقة بالنفس من منظور اسلامى - د/ محمد الشيخ – كنوز عربية ، وموقع الإسلام سؤال وجواب .

الطريقة من ذم النفس وتوبيخها مما أثر على ثقتي بنفسي وأصبحت ليس لها تأثيرا، أو ملامح، لأنني دائما أوبخها وأشكك فيها، أرجو التوضيح وجزاكم الله خيرا.

الإجابة : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فقد ذكرنا سابقا حكم علم التنمية البشرية. ثم إن الثقة بالنفس بعد التوكل على الله مطلوبة شرعا، فالمسلم يتعين عليه أن يحسن الظن بالله تعالى، وأن يتفاءل لنفسه الخير والنجاح دائماً، ويسعى باستمرار في سبيل الارتقاء لتحصيل الكمال، ويستخدم لذلك فكره وطاقته، ويبذل جهده وما تيسر له من الوسائل في تحقيق طموحاته والوصول إلى أهدافه، فقد قال الله تعالى: (**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**) { آل عمران: 159}.

وفي حديث الصحيحين: يقول الله تعالى: **(أنا عند ظن عبدي بي) . وفي رواية لأحمد: أنا عند ظن عبدي بي، فإن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله.**

وفي حديث مسلم: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) .

وأما عدم الثقة بالنفس : فهو نوع من العجز لا يرتضيه الإسلام، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من العجز، يقول صلى الله عليه وسلم : **(اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)،** قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي، وقضى عني ديني. رواه الترمذي وحسنه .

ولا بأس بالنظر في عواقب الأمور، ووضع احتمال الإخفاق في أمر ما، والنظر في العلاج لما يمكن حصوله، فيحذر من أسباب الفشل ويحاول إصلاح ما فسد .

وأما الاتهام للنفس الذي كان يفعله السلف فهو اتهامهم أنفسهم بعدم الوصول للإيمان المطلوب وخوفهم على أنفسهم من النفاق، ولكنهم إذا أرادوا أمرا توجهوا له بعزم وجد وتوكل على الله في إنجاح وتحقيق مآربهم وهذا هو التوكل الذي عرفه العلماء بمباشرة الأسباب مع استشعار أنها لا تؤثر إلا بإذن الله، كما في الحديث: **(اعقلها وتوكل)** . رواه ابن حبان والترمذي وحسنه الألباني. والله أعلم.

*** *** ***

وسئل الشيخ العثيمين – رحمه الله - :

ما حكم قول " فلان و اثق من نفسه " ، أو " فلان عنده ثقة بنفسه " ؟ وهل هذا يعارض الدعاء الوارد (ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) ؟ .

فأجاب : لا حرج في هذا ؛ لأن مراد القائل " فلان و اثق من نفسه " : التأكيد ، يعني : أنه متأكد من هذا الشيء ، وجازم به ، ولا ريب أن الإنسان يكون نسبة الأشياء إليه أحياناً على سبيل اليقين ، وأحياناً على سبيل الظن الغالب ، وأحيانا على وجه الشك والتردد ، وأحياناً على وجه المرجوح ، إذا قال " أنا و اثق من كذا " ، أو " أنا و اثق من نفسي " ، أو " فلان و اثق من نفسه " ، أو " و اثق مما يقول " المراد به أنه متيقن من هذا ولا حرج فيه ، ولا يعارض هذا الدعاء المشهور (ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) ؛ لأن الإنسان يثق من نفسه بالله ، وبما أعطاه الله عزوجل من علم ، أو قدرة ، أو ما أشبه ذلك [101].

*** *** ***

المحور الثالث : كيف تصل إلى الثقة في نفسك [102] : هناك مجموعة من العوامل التي تدعم الثقة بالنفس لدى الفرد، يمكن أن نستقيها من خلال المنهج النبوي؛ وهي كالآتي:

1. تغيير الأسماء القبيحة : كان الرسول يدرك بحكمته السامية أهمية الاسم الحسن في تدعيم الثقة بالنفس، فكان يعجبه الاسم الحسن ويتفاءل به، ويكره الاسم القبيح ويغيره، وفي رواية نافع عن بن عمر في صحيح مسلم: أن ابنة لعمر كان يقال لها عاصية فسماها رسول الله جميلة، وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم أيضًا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غيّر اسم عاصية فقال: "أنت جميلة".

2. النهي عن تحقير الذات : ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي) . ومعنى لقست أي: غثت أو ضاقت؛ وفي هذا الحديث نهي عن تحقير الإنسان لنفسه.

101- فتاوى إسلامية - (4 / 480) – نقلا عن وموقع الإسلام سؤال وجواب.

102- مقال : المنهج النبوي في تدعيم الثقة بالنفس - للدكتور محمد سيد رمضان - شبكة الشفاء العالمية - بتصرف يسير.

ويكره للمسلم وصف نفسه بالصفات القبيحة حتى ولو كان صادقًا، وليس ذلك من التواضع، ويعلق على الحديث السابق ابن حجر قائلاً: (إن المرء يطلب الخير حتى بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما، ويدافع الشر عن نفسه ما أمكن، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتى في الألفاظ المشتركة).

***　　　***　　　***

3. الرسائل الإيجابية : كان من هديه أن يوجه الرسائل الإيجابية إلى من حوله من الصحابة ليلفت نظرهم إلى الإيجابيات التي لديهم، والصفات الحسنة التي تميزهم؛ هذا مما يكون له أكبر الأثر في تكوين مفهوم إيجابي عن الذات، وأيضًا له فائدة عظيمة في لفت النظر إلى أهم الإيجابيات والمميزات

ومن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب : قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إنك غلام معلم) ، وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود). وقوله لأشج عبد القيس رضي الله عنه: (إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة) .

وكان من هديه توزيع الألقاب على من حوله من صحابته، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال : (لو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً).

وفي سنن الترمذي عن عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب)، وفي مسند أحمد عن عقبة بن عامر أيضًا: (لو كان من بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب) .

وهكذا يقوم النبي صلى الله عليه وسلم بتوزيع الأوسمة والنياشين على صحابته عبر الألقاب المختلفة التي تعبر عن أهم ما يميزهم وما يتصفون به، وقد توارثت الأمة هذا في تاريخها، فنحن نجد في كتب التراث ألقاب مثل: (حبر الأمة - أمين الأمة - أمين السر - إمام أهل السنة)، وهكذا.

***　　　***　　　***

4. مدح النفس بضوابطه : ومن أقوال المصطفى في هذا الباب: "أنا سيد ولد آدم، أنا حبيب الله ولا فخر، أنا أكثر الأنبياء تبيعًا يوم القيامة، أنا أعلمكم بالله و أتقاكم، أن أحق من وفّى بذمته".

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن نفسه: "والله لقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أني من أعلمهم بكتاب الله تعالى، وما أنا بخيرهم"، وقال: "والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته".

وأما إذا كان هناك نهي عن تزكية النفس لقول الله عز وجل: (فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) (النجم : 32)، وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)] (النساء : 49)، إلا أن العلماء اعتبروا هذا النهي عن التزكية إن كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، واستثنوا من ذلك ما كان على سبيل التحدث بنعمة الله.

ففي تفسير الألوسي: نزلت الآية في قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا، وهذا مذموم فنهي عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء، أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به، ولا يُعَدّ فاعله من المزكين أنفسهم؛ ولذا قيل المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر، ولا فرق في التزكية من أن تكون عبارة، أو تكون إشارة.

5. توظيف الطاقات : قدم سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه إلى المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة وما أجازه النبي في بدر ولا في أحد، وأجازه النبي في الخندق، وكان حينئذ ابن خمس عشرة سنة، ولما رده النبي عن الجهاد أسر سيدنا زيد لأمه أن يتقرب إلى رسول الله ويلزمه، فأخذه رجال من قومه إلى الرسول ، وقالوا له هذا ابننا زيد بن ثابت يحفظ سبع عشرة سورة من كتاب الله ويتلوها صحيحة كما أنزلت على قلبك، وهو فوق ذلك حاذق يجيد الكتابة والقراءة، ويريد أن يتقرب إليك ويلزمك فاسمع منه إذا شئت، فسُرّبه النبي لحفظه وحسن تلاوته ووعيه وفهمه لآيات القرآن، فتخصص في القرآن وأصبح المرجع الأول فيه لأمة محمد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا نموذج من النماذج العديدة في السنة التي تعبر عن حسن فهم الإنسان لطاقاته وإمكانياته؛ كما حدث من سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه الذي أسر إلى أمه بما يريد، كما يعبر عن مدى قدرة المجتمع المسلم على اكتشاف المواهب وتوظيف القدرات، فقد ذهبوا به إلى

رسول الله ليقوم بتوظيف طاقاته التوظيف الأمثل، وهذا أسوتنا رسول الله رغم أنه رد سيدنا زيد بن ثابت في أمر إلا أنه أجرى له اختبارًا ووظفه التوظيف المناسب له الذي جعل منه شخصًا متميزًا بعد ذلك في حياة الأمة.

6. عدم توجيه الرسائل السلبية : قال الرسول لسيدنا أبي ذر رضي الله عنه لما عيَّر رجلاً بأمه: "إنك امرؤ فيك جاهلية"، وقال شراح الحديث كلمة "فيك" تعني خصلة أو خلق؛ ففي فتح الباري: أي خصلة من خصال الجاهلية، وفي النووي على مسلم وعون المعبود وفيض القدير: أي خلق من أخلاقهم. وفي هذا نتعلم من الرسول القاعدة التربوية التي تقول: "سفّه السلوك ولا تسفه الشخص".

و أيضًا كان من هديه (فلترة) الرسائل السلبية، أي منع وصولها إلى الصحابة حتى لا تؤذيهم، فعندما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشأن سيدنا حاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق لقد خان الله ورسوله والمؤمنين، فما كان من رسول الله إلا أن قال: (مَه يا عمر.. إنه من أهل بدر، لعلّ الله قد اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم قد غفرت لهم). وفي رواية (وجبت لكم الجنة)، وهذا في خطأ كان ظاهره الخيانة العظمى، فكيف بما هو دون ذلك؟!

*** *** ***

بين الثقة والغرور: بين الثقة والغرور شعرة كما يقولون، فالثقة أمر فاضل يقع في الوسط بين رذيلتين؛ بين عدم الثقة من جهة والتعالي أو الغرور من جهة أخرى، فالشخص غير الواثق بنفسه يرى في نفسه عدم الكفاءة والقصور، ويقلل من شأن قدراته ومواهبه، ويقارن نفسه بالآخرين فيشعر أنه أقل منهم، أما المغرور فيرى في نفسه الكفاءة، وأن لديه مواهب وقدرات إلا أنه يراها أكبر من حجمها الحقيقي، ويقارن نفسه بمن حوله فيشعر أنه أفضل منهم، فيتعالى عليهم وربما يحتقرهم، وفي الحديث: "الكبر بطر الحق وغمط الناس"، وعادة ما يكثر المغرور من قول "أنا"؛ فهو ينسب الفضل لنفسه لا لربه.

أما الواثق بنفسه فيرى في نفسه الكفاءة، وأن لديه مواهب وقدرات، ولكنه يراها في حجمها الحقيقي، ولا يرى نفسه أنه أقل من الآخرين أو أفضل منهم، بل إن لديه إمكانيات ليس في غيره

وفي الآخرين إمكانيات قد لا يتصف بها هو، كما أنه دائمًا حريص على أن ينسب الفضل لله فيما يملك وليس لنفسه، وصدق الله العظيم إذ يقول: "وأما بنعمة ربك فحدث".

حبذا لو تعلمنا -وتعلم معنا كل المهتمين بعملية التربية- كيفية إعداد جيل واثق بنفسه متصل بربه قادر على إسعاد نفسه وتحقيق الآمال لأمته .

*** *** ***

مما نراه يزيد من ثقة المسلم بنفسه :

1. ثقته بربه تعالى ، وحسن التوكل عليه ، وطلب النصرة والتأييد منه ، فالمسلم لا غنى له عن ربِّه تعالى ، وكما ذكرنا فإن الثقة بالنفس أمر مكتسب ، ويحتاج المسلم من ربه تعالى التسديد ، والتوفيق ، وكلما كانت ثقته بربه أكثر كانت ثقته بنفسه في أعلى درجاتها .

ولما فرَّ موسى وقومه من فرعون وجنوده وتراءى الجمعان رأينا عظيم ثقة موسى بربه تعالى ، قال تعالى : (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) الشعراء/ 61 ، 62 .

2. البحث عن جوانب القوة في النفس ، فيزيدها ، وجوانب الإتقان فينميها ، وجوانب الضعف والنقص فيعالجها .

وحتى تتعزز الثقة بالنفس لا بدَّ من النظر بعين الثقة لما وهبك الله تعالى إياه من صفات و أفعال متقنة ، حتى يكون ذلك دافعاً لك لتعزيز ثقتك بنفسك ، وأما جوانب الضعف فإن عليك إصلاح حالها ، وجعلها في مصاف الطبقة الأولى من حيث قوتها وإتقانها .

3. ومن المهم جدّاً للمسلم الذي يبحث عن وسائل تقوية الثقة بنفسه : أن لا يردد كلمات الإحباط ، مثل أنه ليس عنده ثقة بنفسه ، أو أنه لا يكاد يوفَّق في عمل .

4. وعلى المسلم وضع أهداف محددة في حياته ، ومراجعة نتائجها أولاً بأول ؛ لأن الواثق بنفسه يرى أهدافه محققة ، فقد أحسن التخطيط ، ووهبه ربه حسن النتائج .

5. وليحرص المسلم على الصحبة الصالحة ؛ لأنها تقوي مظاهر النجاح عنده وتَفرح له ، وتشجعه على بذل المزيد من العمل ، والصحبة الصالحة لا تتغاضى عن جوانب الضعف عند

صاحبها ، بل تدله على سلوك الطريق الأفضل ، فصارت الصحبة الصالحة من عوامل نجاح ثقة المسلم بنفسه .

6. عدم الانشغال بالتجارب القاسية السابقة ، ومحطات الفشل الماضية ؛ لأن من شأن ذلك أن يحبط على المسلم العمل ، ويزدري بذلك جوانب النجاح عنده ، وهذا ما لا يريد المسلم لنفسه .

*** *** ***

المطلب الثاني

مفهوم جلد الذات من منظور إسلامي

هذا المصطلح كسابقيه لم يكن معهودا لدينا نحن المسلمين بل هو من الدخيل علينا فصار يطلق بلا تمحيصٍ ولا تمييز، ويوظَّف في غير موضعه أحيانا كثيرة. فكان من المناسب بيان حقيقته وحكمه الشرعي ، فأقول ومن الله أرجو السداد والقبول :

يمكن تلخيص الموضوع في النقاط التالية [103] :

أولاً : أصل مصطلح جلد الذات : أُطلق أوَّل ما أطلق على طائفةٍ من النصارى تقوم بممارسة الجلد بالفعل تعبيرًا عن الشعور بالخطيئة، فكأنهم يعاقبون أنفسهم بتعذيبها لتهدأ ضمائرُهم من التأنيب.

وقد كان البابا بولس السادس يُغلق البابَ على نفسه ويقوم بجلدها بالسوط أو السلسلة حتى يسيل دمُه. وتعذيبُ الجسد في الديانة الهندوسية هو أقصرُ طريق لتحرير الروح والوصول بها إلى حالة الـ"نيرفانا" وهي ذروة النشوة الروحية العظمى.

وقد أخذ متأخروا الشيعة ذلك عن النصارى والهنود فصاروا يجلدون ظهورهم في مواكب العزاء الحسينية وهم يشعرون بنوع من ارتياح الضمير بالتخفيف من ثقل الخطيئة بخذلانهم الحسين وإسلامه للقتل . فجلدُ الذات يعني بهذه الصور المقزّزة ممارسة الإنسان إذلال ذاته بذاته للتكفير عن خطايا قديمة اقترفها أو لم يقترفها.

إنَّ المجتمعَ الغربيَّ الذي صدَّر لنا هذه المصطلحات بتصوّراته المشوَّهة ينفُرُ من هذه الصورة بطبيعته المدنيّة الحديثة، لكنَّهُ يذهب بعيدًا إلى الطرف الآخر ليعتبر مجرّد الشعور بالخطيئة عُقدةً نفسيةً مَرَضية يجب التحرُّر منها. وبالفعل تجدُ الإنسان الغربيَّ العصريَّ فاقدًا للشعور بالخطيئة، ولم يعد يشعر بحاجة إلى زيارة الكنيسة للحصول على صكوك الغفران.

*** *** ***

103- مقال : مسلكيات - (38) جَلدُ الذات..محاكمةُ المصطلح – للأستاذ جمال الباشا - طريق الإسلام ، ومقال : جلد الذات – للأستاذ حسن محمد نجار– شبكة الألوكة - بتصرف .

ثانياً : دو افع جلد الذات و آثارها السلبية على النفس :

إنَّ لهذه الظاهرة السلبية دو افعَ تدفع الإنسان إلى أنْ يبقى في دائرة السلوك التعذيبي، وتعود هذه الدو افع إلى ما يلي :

1- الغفلة عن سُنن الله في الكون : فالبعض يريد لحماسه الفَوَّار، وحُلمه القوي أن يتحقَّق في يوم وليلة، وهذا أمرٌ جميل، لكنه يغفل عن سُنن الله الكونية، فقد أُودِع الكونُ سُننًا ثابتة، لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، فالحُلم لا بدَّ له من مدة زمنية، وجُهد وتخطيط ليتحقَّق؛ قال - تعالى -: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: 62]، فهو يريد أن يُحقِق أهدافه دون مراعاة لهذه السُّنن، بطريقة هي إلى الوهْم والخيال أقرب منها للحقيقة والو اقع، فحين يعجزعن ذلك يُصاب بالخيبة، وقد حذَّرالنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - من هذه القضية المهزومة الخطيرة، ففي الحديث: (إذا قال الرجل: هلَكَ الناس، فهو أهلَكُهم)، أو (فهو أهلَكَه) رواه مسلم .

***   ***   ***

2- الهروب من الفشَل : جلد الذات شعورسلبي يتنامى غالبًا في أوقات الهز ائم، تتجلَّى فيه أعلى نسبة للسلبيَّة المتنامية جرَّاء الإحباطات الناتجة عن الهزائم النفسيَّة، والنجاح الضعيف الباهت.

فهو شعور سلبي ينبع من رغبة دفينة بالتغلُّب على الفشل، ولكن ليس عن طريق مواجهته و إنما بالهروب منه؛ وذلك لعجز الفرد عن إدراك مواطن قوَّته ومواطن ضَعفه، فجلد الذات هنا حِيلة العاجز، ومَطيَّة الفاشل، ومَهْرب الجبان.

3- جهلٌ مُطبق : في مجالس العلم يُحصِّل الإنسان السكينة، ويقتبس النور ليهتدي به، وعلى النقيض يعيش الجاهل؛ قال - جل وعلا -: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، والجهل السبب الأول لجَلْد الإنسان نفسَه؛ حيث يعتقد بجَهْله أنَّ في التعذيب دواءً، وفي الألَم شفاءً، وقد يقع في ذلك بما يُشيرعليه أويُفتيه به مَن حوله من الجَهَلة.

وقد ورَد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنَّ رجلاً أصابَه جُرْحٌ في عهد رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فأُمِر بالاغتسال، فاغْتَسَل فمات، فبلَغ ذلك رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -

فقال: (قتلوه قتَلَهم الله، ألَم يكنْ شفاءُ العِيِّ السؤالَ) رواه الإمام أحمد، والبخاري في التاريخ الكبير، وأبو داود، وحسَّنه الألباني.

*** *** ***

4- الميل إلى التشديد وعدم الترويح بالمباح:

جوهر التشديد التوسُّع في إيجاب الواجبات، والتضييق في إباحة المُباحات، واختيار أعسر الأمور وأجلبها للمشقَّة، وأدْعَاها إلى وقوع الحَرَج، مع وجود البديل الذي يرفع الحرَجَ، ويجلب التيسير.

والتشديد في حقيقته: هو الاجتهاد الأسهل، وليس الاجتهاد الأفضل؛ إذ الأمر كما قال الفقيه الكبير سفيان الثوري - عليه رحمة الله -: "ليس العلم في التشديد؛ فإنه يُحْسنه كلُّ أحدٍ، إنما العلم الرخصة من ثِقة"، وقال - تعالى -: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]**، فالقصد القصدَ، فلا إفراط ولا تفريط، والإفراط يُعادل التفريط، والتفريط لا يقلُّ خطرًا عن الإفراط، وفي الحديث: بينما النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يخطب، إذ هو برجل قائم، فسأل عنه؟ فقالوا: أبو إسرائيل، نذَر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلَّم، ويصوم، فقال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: (مُروه فليتكلَّم، وليَسْتظلَّ وليقعد، وليتمَّ صوْمَه)** رواه البخاري .

*** *** ***

ثالثاً : الآثار النفسية المترتبة على جلد الذات :

يعود جلد الذات بالآثار النفسية الخطيرة على الإنسان وعلى المجتمع، ويكون له في الأغلب بصمات مُزمنة في العديد من مجالات الحياة، فهو يَحملُ فيروسَ "عدم القدرة على الإبداع"، و"عدم القدرة على مواجهة الأزمات"، مع "تأزُّم التواصُل في العلاقات"، وآخرها "انعدام الأمل بمستقبل مُشرق"، فضلاً عن الأرق والقلق، و انعدام التركيز، والكو ابيس والكآبة.

وهناك الكثيرُ مِن التجارب التي تَمَّت في القرن العشرين على الحيوانات، بالإضافة إلى الإنسان، وأدَّت إلى نتائج مفادها أنَّ جرعة معينة من الألَم الجسدي والنفسي قد تؤثِّر بصورة إيجابية على قدرات الفرد العقلية والجسدية؛ لتحفيزه ، ولكن هذه الجرعة إذا استمرَّت، فإن الشخص يدخل

إلى منطقة ضبابيَّة من الإدراك، يعرِّضه إلى قَبول أيَّة فكرة حتى إذا كانت منافية للمنطق أو مبادئ الشخص.

*** *** ***

رابعاً : نهي الإسلام عن تعذيب النفس وجلد الذات:

خلَق الله الإنسان مكرمًا؛ قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وهذا التكريم اقْتضَى الحفاظ على النفس من إلحاق الضرربها، فالنفس الإنسانية ليستْ ملكًا لصاحبها، فلا يجوز الاعتداء عليها من قِبَل صاحبها أو غيره؛ بالقتل أو التعذيب، أو الجلد أو غيرذلك؛ قال - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]، وقال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: (مَن تردَّى من جبلٍ، فقتَل نفسه، فهو في نارجهنم يتردَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومَن تحسَّى سُمًّا، فقتَل نفسه، فسُمُّه في يده يتحسَّاه في نارجهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومَن قتَل نفسه بحديدة، فحديدتُه في يده يَجَأُ بها في بطنه في نارجهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا) رواه الشيخان .

فمن مقاصد الشريعة حِفْظ النفس الإنسانية من كلِّ سوء تتعرَّض له، وأنه لا ضررَ ولا ضِرار، كما أنَّ الضرر لا بد وأن يُزالَ، ولقد جاءت الشريعة الإسلامية بإباحة كلِّ ما يُفيد البدن ولا يضرُّه، وتحريم كلِّ ما فيه اعتداء على البدن وإضرار به، **وقد قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم : (فإن لجسدك عليك حقًّا)** أخرجه البخاري .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نذَرَت امرأة أن تمشي إلى بيت الله، فسُئِل نبي الله عن ذلك، فقال : (إنَّ الله لَغَنِيٌّ عن مَشْيها، مُروها فلتركبْ) متفق عليه .

*** *** ***

خامساً : نخلُصُ مما تقدَّم إلى أنَّ هذا المصطلح يُحمَلُ على معنيين؛ مذموم ومحمود.

أما المذموم فله صور، منها:

- أن يبلغ المرءُ في معاقبة نفسه حدَّ الإيذاء الجسدي والنفسي، فهو يهدم ولا يبني.
- أن يُعنّفَ نفسه ويعاقبها على خطيئةٍ لم يكتسبها.
- أن يكون أثرُ ذلك عليه هو الشعور بالإحباط والفشل وأنه لا يصلُح لشيء، فيترك العمل.

وأما المحمود : فهو مراقبة النفس ومراجعتها وزجرُها، لكسب القدرة على التحكُّم بها وكبح جماحها، على سبيل التأديب والتربية، لتنقاد له بترك هواها لمراد خالقها. والمحاسبةُ عندنا هي نظرُ المرء في ما هو عليه، ومقايسته بما يجب أن يكون عليه. فإن كانت دون ما يريدها أن تكون، زجرها وعنَّفها وربما عاقبها ليُنهضها ويرقى بها.

*** *** ***

سادساً : كيف يمكن معالجة الشعوربجلد الذات ؟

بناءً على النقطة السابقة نقول : معلوم من خلال كتب تزكية النفس لعلماء الأمة الربانيين، منزلة المحاسبة ومنزلة المراقبة في مدارج السالكين وإحياء علوم الدين وغيرهما .

ووجدنا في كلام الصحابة ما يدل على هاتين المنزلتين فمثلاً : ورد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يُمسك بلسانه معاتبًا قائلًا: هذا الذي أوردني الموارد.

وورد عن عمر الفاروق رضي الله عنه أنه كان يوبخ نفسه في خلواته، قائلًا: بخٍ بخٍ، والله لتتَّقينَّ اللهَ أو ليُعذبنَّك. وهو صاحب العبارة الشهيرة (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا) .

وعليه يمكن أن يستبدل جلد الذات ومعالجته من خلال الآتي :

1- استعن بالله... ولا تعجز:

إنَّ ذِكْرَ الله يزيل المخاوف والأفكار، والتصوُّرات السلبية والوساوس، ويطردها من الذهن في الحال، ويعيق تأثيرها على مراكز الانفِعال؛ كما جاء في قوله - تعالى - في كتابه الحكيم: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

2- حاسِب... بدل أن تجلد:

كثيرًا ما تتداعَى لنا الذكريات، فينفرط شريط الأيام عارضًا نجاحاتنا وزَلَّاتنا، وبين هذه وتلك لا بد من دقائق محاسَبة نقضيها مع أنفسنا، مكافئين أو مُعاتبين، فالتعزيز له دور إيجابي في مواصلة النجاحات، والعَتْب والمحاسبة إنما هو محاولة لنبْش مواضع التقصير والخطأ لتصحيحها.

لكن قد تعبربنا أمواج التقصير، فنتخطَّى بها سواحل العتب؛ لنرتمي في أحضان "جلد الذات"، فلا نتوانَى في تعذيبها وتحطيمها؛ لتغرقَ في بحرٍ من فقدان الثقة.

كثيرة هي زَلاَّتنا، فنحن أولاً وأخيرًا بشرٌ، ولسْنا معصومين من خطأ أو نسيان، لكن من الخطأ أن نتوقَّف عندها زمنًا طويلاً لا تستحقه، وأن نُنشئ على أعتابها مزارات نُحيي بها ليالي من البكاء والنُّواح على ماضٍ لن يعود.

فمُحاسَبة الذات: هي مراجعة النفس، ومعرفة الأسباب وطُرق علاجها، وهي ضرورية لكل إنسان صادقٍ مع نفسه قبل غيره، وتُعتبر من العوامل الهامة التي تساعد على استقرار ورُقِي حياة الإنسان وتطورها، ومن ذلك حالة التوبة من الذنوب الكبيرة والصغيرة، فالتوَّابون يهدفون من خلال شعورهم بالذنب إلى تخليص النفس من آثامها، والعمل الجاد لتطهيرها، من خلال بناء الذات الجديدة والقادرة على العطاء، أو الانتقام من كلِّ مصادر الفشل والقمْع.

بينما جلد الذات: هو الاستمرار في الإيذاء دون علاج، وإنزال العقاب بزيادة اللوم والتعذيب للجسد أو للرُّوح، أو للمجتمع فقط، دون التأمُّل في أسباب الخطأ.

*** *** ***

المطلب الثالث

النقد الذاتي من منظور إسلامي

هذا المصطلح كالمصطلحات السابقة لم يكن معهودا لدينا نحن المسلمين بل هو من الدخيل علينا و أيضا سنلقي عليه الضوء من منظور شرعي في نقاط سريعة [104]،فأقول ومن الله أرجو السداد والقبول :

أولاً : المقصود بالنقد الذاتي :

قصد بالتفكير الذاتي أنه قيام الفرد بالتفكير بدقة شديدة في جميع صفاته أفكاره ،و سلوكه ،و ذلك من أجل الوقوف على النقاط السلبية الموجودة في شخصيته و من ثم البدء في فتح باب المناقشة بينه ، و بين من حوله في هذه النقاط السلبية ،و محاولة إيجاد حلول لها أو يبدأ الفرد بنفسه إصلاح سلبياته شيئاً فشيئاً ،وذلك من أجل تصحيح أخطائه ،و تجنب تكرارها ،و الجدير بالذكر أن مفهوم النقد الذاتي لا يقتصر على الفرد فقط بل يمتد في الوقت الحالي إلى المنشأت ،و الشركات ،وذلك من أجل تصحيح الإنحر افات و تقليل الأخطاء .

في ظني أن النقد الذاتي هو عبارة عن النفس اللوامة أو ما يسمى في عصرنا بالضمير ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: 2]، قال القرطبيُّ -: "ومعنى: ﴿ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ أي: بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم.وقد سبق الكلام على النفس اللوامة.

ومن النصوص الشرعية الدالة على النقد الذاتي ما ورد في الدعاء النبوي حيث يقول صلى الله عليه وسلم- يسأل ربَّه:(اللهم ألهمني رُشدي وأعذني من شرّ نفسي) رواه أحمد .

وعن عمَّار بن ياسر- رضي الله عنهما - قال: "ثلاثة مَنْ جَمَعَهُنَّ فقد جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار والإنصاف من النفس، و بذل السلام للعالم" رواه البخاري معلَّقًا .

104- مقال : النقد الذاتي و أهدافه – موقع المرسال – ومقال : الطريق إلى النقد الذاتي ومقال :التوبة النصوح والنقد الذاتي - كلاهما للدكتور محمود عبدالجليل روزن - شبكة الألوكة - بتصرف .

قال ابن رجب شارحًا: "وقول عمار - رضى الله عنه - فيه زيادة على هذا الحديث [105] بذكر الإنصاف من النفس، وهو من أعز الخصال، ومعناه: أن يعرف الإنسان الحق على نفسه ويوفيه من غير طلب" [106].

واسمع إلى أحد أطبَّاء القلوب الإمام ابن القيم يصف دواءً فريدًا فيقول في مدارجِه: "وأما سوءُ الظن بالنفسِ؛ فإنما احتاج إليه؛ لأنَّ حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويُلبِّسَ عليه، فيرى المساوئَ محاسنَ، والعيوب كمالًا، فإنَّ المحبَّ يرى مساوئَ محبوبه وعيوبه كذلك:

فعين الرضى عن كل عيب كليلة　　كما أن عينَ السخط تُبدي المساويا

ولا يُسيءُ الظنَّ بنفسه إلا مَن عَرَفَها،ومَن أَحسنَ ظنَّه بنفسه؛ فهو من أجهل الناس بنفسه" [107].

ويقول: "وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوةً في قلبك و انشراحًا؛ فاتهمه، فإنَّ الرب عزوجل شكورٌ، يعني أنه لابد أن يُثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عينٍ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول" [108].

*** *** ***

ثانياً : أهمية النقد الذاتي :

النَّقد الذاتيُّ أفضل ما يُصحَّح بها نقد الآخرين، لأنَّه يُربِّي الإنسانَ على المراقبة والرعاية والإنصاف من النَّفس واتهامها، فيسهُل على من تعوَّد نقد ذاته أن يضع نفسه موضع الآخرين، وأن يلتمس لهم الأعذار، وأن يترقَّ في نقده إلى الأفكار لا إلى الأشخاص، وأن يتحلَّى بما يجب للنَّاقد البنَّاء أن يتحلَّى به من أخلاقٍ وآدابٍ.

105- يعني الحديث الذي أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما - قال: سئل النبي - صلى الله عليه وسلم -: أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عَرَفت ومن لم تعرف".

106- فتح الباري شرح البخاري – لابن رجب الحنبلي .

107- تهذيب مدارج السالكين (ص 102).

108- تهذيب مدارج السالكين (ص283).

ويعتبر النقد الذاتي ذو أهمية كبيرة بالنسبة للفرد ،و المجتمع ،و ذلك لأن عملية النقد الذاتي تعد بمثابة الأداة السلوكية التي تقوم بتوجيه الفرد ،ويستفاد منها في تحقيق الكثير من الفوائد بالنسبة للفرد و تمتد بالطبع إلى المجتمع ،كالتالي :

- يعتمد الإنسان على النقد الذاتي في تغير سماته الشخصية ،و مسار حياته إلى الأفضل.
- يتعرف الإنسان من خلاله على السمات السلبية الموجودة في شخصيته ،و من ثم يحاول اصلاحها .
- ينقل الإنسان من الكسل ،و العزوف عن العمل إلى النجاح ،و محاولة تحقيق أحلامه.
- يقوم الفرد بتذكير نفسه بالقيم ،و المبادئ الطيبة التي ترفع من شأنه .

*** *** ***

ثالثاً : وقد يثقل النقد الذاتيُّ على النفسِ لأمور؛ منها:

• أنَّ المرء - وإن كان أريبًا لا يماري في أهمية النقد الذاتيّ - فإنَّه قد لا يستطيعُه بالقدر الذي يستطيعه ناقده من غير نفسه، لأنَّ النَّفس ألِفَت طبعها وأسلوبها، فعسر عليه أن تراه من جهةٍ أخرى، ولو حاول فإنَّه سينتهي - غالبًا - إلى ما انتهى إليه من قبلُ؛ إذ هو هو، وعقله عقله، وطريقته طريقته. ولذلك كان مشايخنا وعلماؤنا يوصوننا: إن كتبتَ بحثًا، أو اجتهدتَ في تكوين رأيٍ عن مسألةٍ ما؛ فتمهَّلْ في إذاعته، ودَعْهُ أيّامًا ثم ارجع إليه، فاقرأه بعين النَّاقد، فإنَّ الغَيْبة التي تركتَ فيها عملَكَ قد أوْهَت - إلى حدِّ ما - أواصر أُلفتِكَ به، فَسَهُل عليكَ أن تراه من جهةِ نفسكَ التي تنقده الآن، لا من جهة نفسكَ التي كتبته قبلُ.

• أنَّ في تراجُعِ المرء عن بعض ما رأى قبلُ؛ هدمًا لجهودٍ استغرقته الأوقاتَ الطويلةَ التي ربَّما تصل إلى سنين، فيعزُّ عليه أن يزيل كلَّ هذا بجرّةِ قلمٍ أو بقولِ: اتَّضحَ لي فُسولةُ رأيي وخطلُ فكري. أنْ يقوم المرء بنفسه بالنقد الذي يؤدي به إلى تفنيد عمله الخاصِّ وتبديد وقته وجهده المبذولين فيه؛ فهذا أمرٌ شاقٌّ على النفس.

ومن المؤكد أنَّ القليلين هم الذين تتوافر لديهم القدرة على مراجعة النفس بأمانة، وإعادة النظر في أعمالهم السابقة بحيث يستغنون عنها استغناءً تامًّا إذا اقتنعوا بأنَّ ذلك ضروريٌّ. فهذه المراجعة تحتاج إلى أخلاقٍ رفيعةٍ وإلى إنكارٍ للذَّات لا يقدر عليه معظم الناس الذين لا

يقبلون بسهولة أن يقتطعوا من حياتهم ومن ثمار جهدهم ثم يتنكرون لها بمحض إرادتهم وكأنّها لم تكن.

***　　　***　　　***

رابعاً : أهداف النقد الذاتي : يقوم النقد الذاتي على مجموعة من الأهداف على رأسها الآتي :

1- تهيئة الإنسان لتقبل انتقادات الآخرين و احترامها .

2- تعود الفرد على أن الخطأ وراد و لا يوجد هناك شخص معصوم منه .

3- تنمية قدرة الإنسان على اكتشاف ما به من سلبيات ،و محاولة اصلاحها .

4- تدعيم ثقة الإنسان بداته ،و قدراته و أنه قادر على تصحيح أخطائه .

5- محاربة الغرور الذي يعاني منه بعض الأشخاص و الذي يقودهم بالطبع إلى الفشل .

6- امتلاك الإنسان القدرة على أن يقوم بمحاسبه نفسه على ما قامه به من أخطاء دون أن ينتظر حساب الآخرين له .

7- التخلص من الأفكار السلبية ،و عدم السماح بتنفيذها أو أن يترك الإنسان لها الفرصة لتسيطر عليه .

الخاتمة

كيف تحاور نفسك حتى تزكو وترتقي

مما أبدع فيه الغزالي في إحيائه المحاورة مع النفس ليصل بها إلى درجة الاقتناع بضرورة الاستقامة على أمره تعالى ومتابعة حبيبه صلى الله عليه وسلم فأحببت أن أسطر كلامه في خاتمة هذه الرسالة التي أرجو الله تعالى أن ينفعني بها وكل من يطلع عليها من المسلمين والمسلمات ، فإلى كلام رحمه الله تعالى ونور ضريحه ورفع درجاته [109]:

تقول لها يا نفس ما أعظم جهلك : تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا أما تتدبرين **قوله تعالى : (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ)** سورة الأنبياء (103) .

أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلِمَ تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى لعله يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

***　　　***　　　***

ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك : **(وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)** سورة هود (6) .

109- كتاب المر اقبة و المحاسبة من كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي .

وقال في أمر الآخرة : (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ) سورة النجم (39) **فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتروكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار.**

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطَّالا يَعِدُ نفسه بالتفقُّه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما لا يُطمَع فيه بمدة قريبة ثم هي أن الاجتهاد في آخر العمر نافع و أنه موصِّل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم تشتغلين فيه بذلك ؟

وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده لا بل الذى تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجزوأعجز لأن الشهوة كالشجرة الراسخة مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدرعليه في الشباب لا يقدرعليه قط فى المشيب .

*** *** ***

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة !! أيصبر أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة أيام .(وهي قليلة مهما طالت لأن الدنيا إلى زوال) .

[110]**فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله** ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة

[110]

معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حَسَنٌ .

ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرورفانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة استعدي للآخرة على قدربقائك فيها .

*** *** ***

كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والناروسائر الأسباب فلا يندفع حر الناروبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات و إنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك و سنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا -

ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا و أنست بها فعسر عليك مفارقتها و أنت مقبلة على مفارقتها وتؤكدين في نفسك مودتها فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة و إنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى

أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم " أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون يبنى كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفورتحت الأرض فهل في الدنيا حمق و انتكاس أعظم من هذا " يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا .

أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمورو إنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا و اقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك عجبا لك كيف تعمين عن هذه الأمورالواضحة الجليلة ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين انت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك .

وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ف (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) سورة مريم (98) فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب و انتظمت لك الأسباب، كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك .

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلوبلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن ان تكونى في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوارب العالمين أبد الآبدين لتكونى في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين .

ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك .

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم و أنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لا شتروه لو قدروا عليه و أنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة .

ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير و أنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله و أنت عنه فارة وتذكرين بالله و أنت له ناسية أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك و أنت غير طيبة في نفسك ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يديك ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص .

***   ***   ***

ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبد أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته يوم تقولين : **(مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)** سورة الكهف (49)

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى .

فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام فإن لم تزل فالمواظبة على الصيام فإن لم يزل فبقلة المخالطة والكلام فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه.

فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعينى بأرحم الراحمين واشتكى إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك فافزعى إليه بالتضرع واخشعى في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة .

وقد ضاقت بك السبل و انسدت عليك الطرق و انقطعت منك الحيل ولم تنجح فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسئول جواد والمستغاث به بر رءوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولى : يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجرىء الذى لا أقلع أنا المتمادى الذى لا أستحى هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثتى وفرجى وأرنى آثار رحمتك وأذقنى برد عفوك ومغفرتك وارزقنى قوة عظمتك يا أرحم الراحمين .

ورحم الله القائل :

إِذَا مـا قَالَ لِي رَبّي " أَمَا اسِتَحْيَيْتَ تَعْصِيني؟

وَتُخْفِي الذَّنْبَ عَنْ خَلْقِي وبِالعِصيانِ تَأتيني ؟ ! "

فَكَيْفَ أُجيبُ يا وَيْحِي! وَمَنْ ذَا سَوْفَ يحْمِيني؟

أُسَلِّي النَّفْسَ بالآمالِ مِنْ حِينٍ إلَى حِينِ

و أَنْسَى ما وراءَ الموتِ ماذا بَعْدُ تَكْفِينِي ؟!

كَأَنّي قَدْ ضَمِنْتُ العَيْشَ لَيْسَ المَوْتُ يَأتِيني !

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ الشَّدِيدةُ مَنْ سَيَحْمِيني؟!

نَظَرْتُ إلَى الوُجوهِ أَلَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ سَيُفْدِيني؟

سَأُسْأَلُ مَا الذي قَدَّمْتُ		في دُنْيايَ يُنْجِيني

فَكَيْفَ إِجَابَتِي مِنْ بَعْدُ		مَا فَرَّضْتُ في دِيني

وَيَا وَيْحِي! أَلَمْ أَسْمَعْ		كَلَامَ اللهِ يَدْعُوني

أَلَمْ أَسْمَعْ لِمَا قَدْ جاءَ		في (قٍ) و (ياسينِ)

أَلَمْ أَسْمَعْ بِيَوْمِ الحَشْرِ		يَوْمِ الجَمْعِ والدِّينِ

أَلَمْ أَسْمَعْ مَنادي المَوْتِ		يَدْعُوني، يُنَادِيني ؟ !

*** *** ***

تمَّتْ وللهِ الحَمْدُ والمنَّةُ